11

يوم التأبين

قرابة الساعة 40 :7 من مساء يوم 8 تشرين الثاني 2003، خرجت عربتا هامفي من البوابة الأمامية لقاعدة أمريكية في معسكر الرشيد العسكري جنوب بغداد. كانت المهمة إحضار عريف يحضر اجتماعاً في مشفى الدعم القتالي داخل المنطقة الخضراء. وكانت القافلة من فصيل الكشافة في فرقة المقر 2 - 6 مشاة، وهي كتيبة جون بريور. في المقعد الخلفي الأيسر للمركبة الأولى جلس جندي خاص في الثانية والعشرين من عمره اسمه كيرت فروشيسر.

لم يكن هناك شيء ظاهر يميز الجندي الخاص فروشيسر عن عشرات الآلاف من الشباب المجندين الذين خدموا في العراق. كان فروشيسر من دي موا من ولاية أياوا. وكان له أخ توءم، وأخت متزوجة أكبر سناً، وكان والداه مطلقين، وكان طالباً عادياً ومتمرداً بعض الشيء في المدرسة الثانوية، وفي الحادية والعشرين من عمره ترك الكلية، وعاش مع عائلة أخته، وكان يعمل بتوصيل البيتزا، ويحضر الحفلات بكثرة. كانت له ابتسامة صبيانية صفيقة، بفمه الممتلئ وعينيه ذات الجفون السميكة التي أخذها عن والده، كان يحب لينيرد سكينيرد وشرطة شيكاغو؛ وفي أحد الأيام في كانون الثاني 2003، دخل إلى البيت، وأخبر أسرته أنه قد تطوع في الجيش.

لم يكن والده كريس مبتهجاً بالخبر. كانت هناك حرب تدور ضد الإرهاب، وكانت هناك إمكانية قوية لحدوث حرب برية في العراق. لكنه لم يحاول أن يتجادل مع ولده. وفي شهر شباط، جاء كيرت إلى شقة والده في الثانية صباحاً بعد أن كان في الخارج يشرب، وقال: «أريد أن أصبح جزءاً من شيء أكبر من نفسي».

تابـع كيرت غزو العـراق على شاشة التلفاز، وكان يبدو جاداً أكـثـر من أي وقت رأته فيه أختـه إيرين. كان لديه مجال للتراجع عن التزامـه، لكنه غادر بيته في 16 نيسان إلى فورت نوكس، «كينتاكي»، لحضور التدريب الأساس. وفي شهر حزيران ذهبت العائلة لرؤيته في يوم الأسـرة، وذهل كريسـ فروشيسر للتحول الذي رآه: كان ابنه يقـف في انتباه ممتاز في حقل بيرشينـغ مدة خمس وأربعـين دقيقة بلباسه العسكري. وفي شهـر آب من العام نفسه عادوا لحضور تخرجه: الجندي الخاص فروشيسر، يمشي ويغني مع زملائه في الدراسة، «احملوا جرحاكـم، احملوا قتلاكـم». كانت الكلمات تبعث القشعريـرة في فروشيسر، لكن الموسيقا، ودقـة التشكيل وحدته، وتحمل ولده، كان كل ذلك يملؤه فخراً. كان هناك شيء جديد ومهم يحدث في حياة كيرت. بعد الاحتفال قال كيرت لوالده: «لم تكن ملتزماً معي بما فيه الكفاية». كان كريس يتلكأ دوماً في المناطق غير الواضحة، ويطرح الأسئلة، لكن كيرت كان يريد النور الواضح للقسَم والأمر.

عادوا جميعاً إلى دي موا؛ ليقضوا الأسبوعين الأخيرين لهم معاً في نهاية الصيف قبل أن يلتحـق كيرت بالفرقة المدرعـة الأولى في ألمانية. كان يحتفل كل ليلة، لكن الرحيل كان يخيم علـى الجميع، وفي الليلة الأخـيرة، حين أوصلته إيرين إلى الحفلـة الأخيرة، والتفتت لتنظر إليه، قال لها: «أعرف»، وتركها مسرعاً.

قال كيرت لوالده في وقت متأخر من تلك الليلة: «حسناً أيها الرجل العجوز، على الأرجح أننـي لن أراك قبل عامين»، وبـدأ كلاهما بالبكاء، ومسح فروشيسر بيده على شعر ولده ذي القصـة العسكرية. «أعرف أنني سأكون في وضـع صعب. لكن كما تعرفني، فأنا أنجو». كان فروشيسر يعرف أن تلك الكلمات كان المقصود منها أن تريحه. فقال لوالده: «عش حياتك، أيها الرجل العجوز».

في ألمانيـة، شعر كيرت بالملـل من عقله، وكان متلهفاً للالتحـاق بباقي فرقته في العراق. مـرة ذكـر لوالده في مكالمة هاتفية أنه يبدو كأنه لا توجد أسلحة دمار شامل في العراق. «لقد خُدعنـا. أليس كذلك؟» فقال والـده: ليس بالضرورة، قد يكون هناك أسباب أخرى للحرب، مثـل الديمقراطية في الشرق الأوسط، ربما كانت أسلحة الدمـار الشامل أسهل الأمور التي يمكن أن تقنع الشعب. هيأ الضباط في باومهولدر كيرت والآخرين لما أصبح حرب عصابات

في العـراق، وقالوا لهم: ألا يلتقطوا أكياسـ النفايات، أو يأخذوا الرزم التي يسرع الأولاد في إعطائهـم إياهـا، وحين ذكر كيرت ذلك لإيرين لم تستطـع أن تتخيل نفسها في مكان كهذا، حيث لا تستطيع أم مثلها أن تسمح لأولادها بالخروج من البيت؛ خوفاً من انفجار شيء.

وفجـأة أصبح كيرت بعد ذلك على متن طائرة إلى الكويت. وفي نهاية شهر تشرين الأول كان في بغداد، في الوقت الذي كانت اعتداءات رمضان تشتعل.

في 6 تشريـن الثاني استطاع الاتصـال بالإنترنت، وأرسل رسالة إلكترونية لأخته: «القطاع الـذي نقـوم بحراسته جيد، ونحن لا نتعرضـ لإطلاق النار، ولا نجد عبـوات ناسفة بسيطة، حيـث كانـت طريقتهـم الرئيسة في مهاجمتنـا هي وضعهـا في أكياس، لكنهـم الآن يضعونها في الحيوانـات الميتـة أو الكتـل الإسمنتية لإخفائهـا بشكل أفضل. من المرعـب أن نعرف أنهم في الخـارج، لكن كما قلـت فإن منطقتنا مؤمنـة وكل شيء سيكون على ما يـرام». وحين كتب لوالده عن مهمته الأولى خارج المدينة التي كانت دورية ليلية مليئة بالأحداث، كان كيرت أكثر وضوحاً: «وجدت نفسي أفكر أنني في بلد فقد فيه كثير من الجنود حياته، لكن في الوقت الذي قضيتـه فيه كان هادئاً باستثناء الكلاب الشاردة التـي تنبح. العراقيون يكرهون الكلاب؛ لذا فجميعهـا برية ولم تستحم مـرة في حياتها. وليس في العراق مجارٍ؛ لـذا فهم يحفرون قنوات ويتركـون الفضلات في الشوارع، فتفوح منها رائحة كريهة جدًا. وكما قال الجنود الذين كانوا هنـا منذ البداية؛ فهي أماكن ذات رائحة سيئة لدرجة تجعلك تتقيأ. وحسبما أرى، فإن الأمر سيستغـرق أكثر كثيراً مما يقول رامسفيلد وبوش: إنهم بحاجة إليه لإعادة الأمور إلى وضعها في هـذا البلـد الكريه. تحدث كيرت مرة مـع والده على الهاتف باختصـار، وقال: «متفجرات محلية الصنع، أيها العجوز، متفجرات محلية الصنع».

في مسـاء 8 تشرين الثـاني، كان كيرت جالساً على سريـره، يصنف ويعد ذخيرته، حين جـاء الأمر بمهمـة إلى مشفى الدعم القتالي. كان يتدرب لنيل شهـادة سائق عربة هامفي، وقفـز لينتهز الفرصة لتجربة القيادة في بغـداد ليلاً. في أثناء الأيام القليلة التي قضاها مع كتيبتـه عـرف أنه مُجد وسريع التطوع. تسابق هو وصديقـه المقرب في الوحدة، المجند مات بلاملـي من تينيسـي إلى المركبة. ولما كان الباب الخلفي الأيمـن صعب الفتح، اتجه كلاهما نحو الباب الأيسر، فوصل كيرت أولاً.

بعد خروجه من القاعدة بخمس دقائق، بينما كانت القافلة تنطلق شمالاً نحو وسط بغداد، كانت على الطرف الأيسر للطريق السريع المظلم أمامهم على بعد ثلاثين قدماً قذيفتان مدفعيتان من عيار 130مم محشوتان بمادة سي 4 الروسية بقوة هائلة: شعلة مضيئة، ودخان أسود، وغبار متطاير، ورائحة متفجرات. مزقت رجلي السائق، الجندي الخاص مات فان بورن، بسبب القطع المشتعلة المتطايرة، لكنه أسرع بضع مئات من الياردات على الطريق السريع؛ ظناً منه أنه يستطيع أن يدخل بوابة الحشاشين، إلى أن طلب إليه الرقيب الأول الجالس أمامه، داريل كلاي، أن يتوقف.

بدأ المؤذن ينادي المؤمنين للصلاة. وفي الخلف في عربة الهامفي، كان كيرت ساقطاً في مقعده. وحين تفقد بلاملي نبضه، كان قد توقف. كان ينظر من النافذة -التي لم يكن لها زجاج واقٍ- التفت برأسه جهة اليسار، واخترقت قطعة معدن فضية الجانب الأيمن من جمجمته تحت الخوذة تماماً بين عينه وأذنه وخرقت دماغه. حُمل كيرت فروشيسر بطائرة مروحية إلى مشفى الدعم القتالي في المنطقة الخضراء، حين أعلنت وفاته في الساعة 8:17 مساءً.

في الساعة السادسة والنصف حسب التوقيت المحلي من صباح اليوم اللاحق، الأحد، رن الهاتف في الشقة الصغيرة التي يعيش فيها كريس فروشيسر العازب في دي موا. كانت المكالمة من مقدم في الحرس الوطني بأياوا الذي كان على بعد بناءين ويحاول إيجاد العنوان. قال له باقتضاب: «لدي رسالة من الجيش»، عندها عرف فروشيسر؛ لأنه سأل أحد الضباط قبل أسبوع: ماذا عليه أن يتوقع إذا حصل شيء لكيرت، وقال له الضابط: إنه سيتلقى مكالمة هاتفية إذا كان مصاباً، وزيارة إن كان قد قُتل. قابل فروشيسر المقدم أمام المبنى ودعاه للدخول، وكان يتحرك مفترضاً أن كل هذا قد يكون خطأً، وأجريا حديثاً مختصراً في غرفة الجلوس. ذهب فروشيسر إلى المطبخ لإعداد فنجان من القهوة. وحين عاد، وقف المقدم فجأة باستعداد: «يؤسفني أن أخبرك أن ابنك كيرت قد قُتل بسبب الأحداث في بغداد».

«ليس كيرت! ليس كيرت!».

ركض كريس فروشيسر إلى الصالة، ثم عاد يركض إلى غرفة الجلوس. سأله المقدم إن كان يستطيع الاتصال بأحد؟ لكن فروشيسر كان يتصل بإيرين، ثم اتصل بصديق أوصله إلى بيت ابنه الثاني، توءم كيرت، جويل. ضرب فروشيسر على النافذة، وهو يصرخ: «إنه كيرت، إنه ولدنا كيرت!» ثم انطلق هو وجويل معاً إلى الحي الذي تسكن فيه إيرين. كانت بقية اليوم والأيام اللاحقة مليئة بالدموع والأصدقاء والخمر والإعياء.

في يوم 11 تشرين الثاني، يوم المحاربين القدماء، اجتمعت كتيبة كيرت، (كتيبة المشاة 6-2)، في القاعدة الأمريكية جنوب بغداد للتأبين. كان جون بريور هناك، وكذلك القائد الآخر روبرت سووب الذي كتب فيما بعد وصفاً للحفل:

في الخلفية أصوات ناس يتكلمون، ومركبات تعبر، وطائرات مروحية فوقنا. بعض الطيور تطير فوقنا بشكل متقطع. وفراشة تمر بنا. أنا أرى أحد المترجمين العراقيين من مركز الترجمة الرسمي يجلس على كرسي ويقرأ ورقة، بينما تقف بقية الكتيبة في الصفوف. يفترض أن يبدأ الحفل الساعة 14: 02، لكنه لم يبدأ حتى 48: 2 لأنه كان علينا أن ننتظر وصول اثنين من الجنرالات.

بدأ الحفل بصلاة من القسيس، وبعد ذلك تحدث كل من آمر الكتيبة وآمر السرية. وتبعهما جنديان خاصان كانا يعرفان الجندي. أحد الجنديين اختنق وبكى، بينما كان يثني على كيرت. نظرت حولي إلى بحر من الوجوه الحزينة، وفي مؤخرة صفوف الكتيبة رأيت أن إحدى الجنديات المرتبطات بفرقتنا كانت تبكي.

عزف زمار مقطوعة «Amazing Grace» بشكل سيئ حتى إنها في وسطها بدت لا تشبه الأغنية. قام الجندي الذي عزف «Taps» في نهاية الاحتفال بعمل أفضل كثيراً.

بعد انتهاء المقطوعة الأولى وقبل بدء المقطوعة الأخيرة، تلا القسيس آيات من الإنجيل، ثم قدم رسالة تأبينية وصلاة. وبعد ذلك كانت هناك دقيقة حدادًا. ثم قرأ الرقيب الأول بالوكالة في السرية قائمة الحضور، وكان ينادي بأسماء الجنود في الوحدة. أجابوا جميعاً،

واحداً تلو الآخر، بأنهم حاضرون. وحين وصل إلى الجندي القتيل، كان كل شيء هادئاً.

نادى باسمه ثانية، لكن دون إجابة. فقام بذلك للمرة الأخيرة، مستخدماً اسمه الكامل ورتبته:

صمت.

ثم بدأت معزوفة «Taps» الحزينة. وفي منتصف المعزوفة بدأ عازف البوق يبتعد ببطء، جاعلاً الموسيقا تخفت بلطف عن بعد. مشى جيس إلى المكان الذي كان فيه سبعة جنود يقفون ومعهم سبع بنادق. أعطى الأمر، وأطلقوا ثلاث مجموعات من الرصاص؛ ليقدموا تحية بإحدى وعشرين طلقة.

حين انتهوا مشت الكتيبة إلى النصب التذكاري الذي كان عبارة عن بندقية إم 16 ذات حربة معلقة بحامل خشبي، وفي أعلى السهم كانت هناك خوذة معلقة تتدلى منها بطاقتان عليهما اسمه ورقمه الاجتماعي وفصيلة دمه وديانته. وأمام البندقية مباشرة في وسط النصب التذكاري تماماً كان هناك زوج من الأحذية العسكرية. وإلى يمينه ويساره نجمتان برونزيتان وقلبان أرجوانيان في حقيبتيهما المصنوعتين من الحرير والمخمل. وخلف البندقية كان هناك سيفان متصالبان يمثلان الوحدة التي ينتمي إليها. تبع باقي الجنود قائد الكتيبة الذي حيا النصب التذكاري الذي يمثل الجندي الخاص فروشيسر، إلى أن حياه جميع جنود الفرقة، ويمكن لباقي الحضور أن...

هذه هي المرة الثانية التي أضطر فيها لحضور حفل كهذا في هذا العام، وأنا لا أشعر بالراحة لقيامي بذلك. مشيت إلى النصب التذكاري بالطريقة التي مشيت فيها في شهر نيسان الماضي إلى نصب جندي آخر في سريتي، كنا قد أقمنا له المراسم نفسها في حقل من الأوساخ قرب المَدرج في مطار بغداد الدولي. لم أحنِ رأسي أو أصلِ أو أهمس بشيء كما فعل كثيرون قبلي. لم أنحنِ لألمس طرف حذائه، كما فعل رئيس العرفاء قبلي. قدمت التحية فقط، ثم استدرت وابتعدت.

أراد كريس أن يرافق جثمان ولده عند عودته من بغداد، أو على الأقل أن يلاقيه في قاعدة دوفر الجوية في ديلاوير. في النهاية كان يكفي أن يتسلم النعش في مطار دي موا مع ثلاثين

مـن أفـراد العائلة والأصدقاء وأن يرى وجه كيرت مرة أخيرة. حاول فروشيسر أن يقول: إن شجاعـة ولده ملأته بالخوف، لكنه لم يستطـع أن يعبر عن أفكاره بشكل جيد. حصل كيرت على جنازة عسكرية بعد المراسم الكاثوليكية ودُفن في مقبرة غليندل.

قالت زوج فروشيسر السابقة جيني، والدة كيرت، لصيحفة محلية: «كان يحب هذه البلاد ومبادئهـا. كان يحب أياوا. شـرف لي أن أقدم ابني؛ لأحافظ على طريقة حياتنا». كانت قد أصبحت مسيحية إنجيلية، وقالت: إن كيرت تطوع لقتال قوات الشر. كان ذلك إيحائياً جدًا لكريس فروشيسـر، افتراض نوع من الحـرب الدينية، كما أن كـيرت لم يكن يتحدث بهذه الطريقـة. في الليلة التي وصلـت فيها الأخبار الرهيبة، اتصل الحاكـم توم فيلساك؛ ليقدم التعـازي وقـال: إنه يأمل أن تكـون سياسات البلاد صالحة مثل أبنائهـا. قلق فروشيسر من فكرة أنها قد لا تكون كذلك. كان يقارن باستمرار بين قسَم الرئيس حين تسلم منصبه وبين القسَـم الـذي أقسمه ولده حين أصبح جندياً: هل كانا ينفذان قسميهما بالجدية نفسها؟ في شهـر كانـون الثاني كتب أحد أصدقاء كيرت من فورت نوكس رسالة بالبريد الإلكتروني قال فيها: «لا أعتقد أنه كان في عربة هامفي مدرعة، أليس كذلك؟ ربما لا، فالعم سام لن يعطينا أشيـاء جيـدة». لم يعرف فروشيسر الإجابة، لكن التفكير في ذلـك لم يساعده، ولو قليلاً في التغلب على حزنه.

جرت كل هذه الأمور بسرعة هائلة، واتساع تاريخي كبير – ابنه، في الجيش، في العراق، أحـداث رمضان، ضربة في الرأس –حلم فروشيسر أنه في الجيش مع كيرت، مع أنه لم يكن مـن الواضـح إن كانا أباً وابنه أو صديقين، لكن كليهمـا كان يجلس في الطرف الأيمن وحين جـاء الانفجـار سقطا من عربة الهامفي معاً وكان كل شيء على ما يرام. لم ينسَ فروشيسر فكـرة أنـه لم يكن مع كيرت في تلك الليلة ليحميه، وكذلـك لم تفارقه فكرة أنه لم يرسل إلى كـيرت الكتاب الـذي طلبه لتولكينـز The Return of the King. كان يضـع ساعة كيرت في يده، وكانت لا تزال على توقيت بغداد، وكان المنبه فيها يرن كل يوم في الساعة 6:30 صباحاً و9:30 مساء في ديموا. ظل أسابيع وأشهراً يحاول أن يعرف معنى موت ابنه، لكنه لم يستطع الوصول إلى حل.

كان فروشيسر في الخامسة والستين من عمره. وهو ابن لبائع من شيكاغو، ويتحدث بلهجة هادئة غربية وسطى، وقد قضى معظم حياته يعمل في التأمين قبل أن يبدأ مهنة جديدة؛ هي مدير خدمات اجتماعية لجيش الإنقاذ في دي موا، حيث كان يحاول حل مشكلات حالات الشدائد التي تأتي إلى مكتبه، ويقدم الطعام للرجال الذين ينامون تحت الجسور. كان ديمقراطياً طوال حياته، وكان قد دعم روبرت كينيدي عام 1968 حين كان طالباً. لم يكن يستطيع أن يشارك في الحركة الرافضة للحرب، على الرغم من أنه كان يعتقد أن فييتنام كانت خسارة هائلة، لكنها لم تكن سبباً يجعل المرء يكره بلاده. حتى حملة جين ماك كارثي لفتت نظره بأنها نخبوية، وغير تقليدية وحين قال ماك كارثي: إن كينيدي كان «يدير أقل الناس ذكاء وثقافة بالشكل الأفضل»، جعلت هذه الكلمات الصبي الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا ويرتاد جامعة دريك مستاءً. كان أمثال توم هايدن في العالم سينجحون كيفما قضوا شبابهم، وعلى أمثال كريس فروشيسر أن ينتبهوا لما يفعلون في وقتهم.

كان كريس جزءاً من أمريكة الوسطى، لكنه لم ينضم إلى ردة فعل نيكسون وريغان: ظل تحررياً، على أسس اقتصادية في الغالب. وحين تراجعت نوعية المرشحين الديمقراطيين، عاد إلى أحد الاهتمامات الأكاديمية التي كانت لديه في سنوات دراسته الجامعية، وكانت الشقة التي استأجرها بعد طلاقه في منتصف تسعينيات القرن العشرين مليئة بكتب عن روزفيلت وترومان وآشيسون، التحرريين في منتصف القرن الذين بدوا أكثر حكمة وقسوة من ورثة جورج ماك غوفرن. قرأ روايات تاريخية عن الحريات الأربع لـ فرانكلين د. روزفلت ومذهب ترومان، وعندما تم نشر تقرير لجنة الحادي عشر من أيلول اشترى واحدة من النسخ الأولى. وحين قرأه استنتج أن أفكار ذلك الجيل السابق من الديمقراطيين الذين حاربوا ضد الفاشية والشيوعية، بينما كانوا ينشئون تحالفاً للديمقراطيات، يجب أن تعاد وتطبق على الحرب ضد الإرهاب والصراع في العراق. كان مضطرباً مع صديقه الديمقراطي الذي فكر أن العراق فييتنام أخرى، ولم يستطع أن يحتمل أن يسمع أن حياة كيرت قد ضُيعت. وحين اتصلت به جماعة كاثوليكية محلية في نيسان 2004 لتقدم التعازي، وأعلمته أن صورة كيرت مع صور الآخرين الذين قتلوا من أهل أياوا، ستعرض في سهرة أسبوعية

على ضوء الشموع، اتصل كيرت وطلب عدم استخدام صورة كريس. كان يعتقد أن تقديم التعازي يجب أن يكون قبل ذلك، كما أن روح السهرة كانت حول سياسة الحرب، وليس حول الجنود. لكن حين اشترى شمعة تدوم طويلاً من متجر كتب مسيحي وأخبر عاملة الصندوق أنها لقبر ولده، وقالت له: «شكراً لتضحيتك»، بدا له ذلك غريباً أيضاً. فلم يكن ذلك خياره.

في مؤتمر أياوا التحضيري في ذلك الشتاء دعم فروشيسر السيناتور جون إدواردز. كانت لديه شكوك حول جون كيري. وحين دعا صديقًا له تصويت كيري ضد تخصيص مبلغ سبعة وثمانين مليون دولار للحرب «تصويتاً احتجاجياً»، قال فروشيسر: «هذه قضية خطيرة تستدعي التصويت الاحتجاجي». تساءل إن كان كيري بصفته رئيساً يمكن أن يثبت في العراق تحت الضغط من قاعدة الحزب الناشطة. وإلا فما معنى موت كيرت إذاً؟ وحين قال الرئيس بوش في خطاب له: «سنحتفظ بهذه الأرض التي كسبناها بصعوبة»، وجد اللغة ملهمة. أما لغة كيري فلم تلهمه. ظل فروشيسر يتذكر رسالة لينكولن إلى الكونغرس عام 1862: «لما كانت قضيتنا جديدة، فعلينا أن نفكر بطريقة جديدة، ونتصرف بشكل جديد. علينا أن نحرر أنفسنا وبعدها سننقذ بلادنا». كان يتوق لسماع كلمات كهذه من قائد في وقت الحرب؛ كانت السياسة بحاجة لفن التفسير. لكن بوش، الذي كانت له أخطاء كثيرة، لم يكن قادراً على الاعتراف بها أو حتى رؤيتها؛ ومع أفضل تعليم يمكن أن يشتريه المال، كان يبدو أنه لا يعرف إلا القليل عن العالم. كانت الحرب تزداد سوءاً، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن أحداً في القيادة يستطيع أن يقلب الأمور. وكان فروشيسر يريد أن يرى حكومة وحدة وطنية، تتألف من توماس كين ولي هاملتون من لجنة 11 أيلول، وأعضاء مجلس الشيوخ بايدن وفاينستاين وهاغل وليبيرمان ولوغار وماك كين. كان العراق أهم من أن يترك للمتحيزين.

بينما كنت في العراق وصلت رسالة من دي موا. كان كريس فروشيسر قد قرأ شيئاً كتبته عن جون بريور، وكان يبحث عن طريقة يفهم فيها حياة كيرت القصيرة وموته في العراق. وبعد أن عدت، بدأنا نتراسل عن طريق البريد الإلكتروني. كانت رسائل فروشيسر مليئة بأسئلة قلقة، والعودة باستمرار إلى بعض الأفكار غير الحاسمة، لرجل عانى صدمة وقرر أن يشعر بكل تفاصيلها، وألا يتجنب شيئاً.

1 نيسـان، 2004: يريـد الديمقراطيون سياسـة خارجية وإستراتيجيـة للأمن القومي؛ ليقومـوا بدعمهـا. لقد أطلت الآن كثـيراً، ولم أجب عن أسئلتك بشـكل جيد. إن ذلك يظهر ازدواجيـة وصعوبـة في الحديث عـن شيء أكثر من الأمـور الشخصية. آسـف، هل يمكنني أن أكتـب لـك لاحقـاً؟ فأنا لا أستطيـع المتابعـة الآن. أعدت قراءة خطـاب ترومان «مذهب ترومـان» وخطاب بدء مارشال في هارفارد في حزيران 1947. لقد احترمتهم واحترمت تلك السياسـات. علي أن أتجنب المـرارة. أنا أحترم كيرت وغيره من الجنـود، فالشعور بالمرارة يبدو غير لائق. إلى اللقاء في المزيد لاحقاً، إن لم يكن لديك مانع.

1 نيسـان 2004: مـا الذي يريده كيرت؟ إنه دليلي. أحياناً تكون «حماية القوة» والعمل في صراع، لكن يجب القيام بكل ما ينبغي فعله لحماية هؤلاء الشجعان، جنودنا. أنا أفتقد ولدي كثـيراً! دموعي تنهمـر طول اليوم. ما قيمة ذلك؟ عراق ديمقراطـي؟ هل يساعد جنودنا في تحقيق عراق أكثر حرية وديمقراطية؟

15 أيـار 2004: أحيانـاً أفكـر في كون كيرت في بغـداد في العراق جزءاً ممـا يسمى «عملية الحريـة العراقيـة». قال كيرت: إنه يريد أن يكون جزءاً من شـيء أكبر من ذاته. كان في وسط شيء كبير لدرجة: إنه يصعب فهمه. يمكن قول المزيد عن ذلك، أنا أريد فقط أن أعرف ما هو. لقد مات ابني لأجل شيء ما. وإن مجرد التطوع في الجيش شرف، فكيف بالخدمة في العراق.

26 أيـار 2004: أريـد لهـذا أن يكـون «نجاحاً» للعراقيـين والولايات المتحـدة، ومن أجل التضحية التي قدمها كيرت وجميع الآخرين، ومن أجل ألم عدم وجود كيرت بيننا بعد الآن. كـيرت ابني وشقيـق إيرين وجويل وخال كولين ومادلين. أنا لا أحـاول أن أكون درامياً بشكل مبالغ فيه، سيد باكر، أنا فقط أحاول أن أعبر عن «الشعور» الذي يسببه ذلك الأمر.

5 تمـوز 2004: (في أوائل تموز عادت الفرقة المدرعة الأولى أخيراً إلى ألمانية بعد أكثر من سنـة في العـراق): أنا أشعر الآن بنوع مـن الضياع بسبب مغادرتهـم، دون كيرت. قد لا يكون لهذا معنى لكن ساعة كيرت على توقيت بغداد ووحدته ليست هناك، مع أنه كان معهم هناك. إنـه الآن ليس معهم في باوهولدر. لهذا فإن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً لكي نعرف ماذا، نتابع؟ ربما أنا أعيش على هذا النوع من الأشياء أكثر مما يجب. لكن هذا أنا، وسأكون على مايرام.

28 آب 2004: يـوم الثلاثـاء القادم، سيقيم جورج بوشـ حملة قرب دي موا في مجموعة مزارع تدعى أليمان، أياوا. على ما يبدو أن الحملة قامت بدعوتنا؛ لأننا عائلة كيرت؛ لنكون هنـاك. تحدثت أنا وجويل عن ذلك وإيرين أيضـاً، وسنحضر. أظن أنه تكريم لكيرت. ربما يفسر ذلك بأنه دعم لبوش وربما لا، لكنني سأضع ولائي الديمقراطي ضد ولاء أي شخص. أنـا مخول بمصافحـة الرئيس؛ تقديراً لكـيرت. بالإضافة إلى ذلك أعتقـد أنه من الغريب أن الديمقراطيـين القياديـين لم يقولـوا لي إلا قليلاً جدًا عن خدمة كـيرت، وأنا ديمقراطي مخلصـ. أعرف شخصـاً كان يشغل منصبـاً في الحزب الحاكم، وكان مـن أوائل المؤيدين لإدواردز. وقـد عـبرت عـن اهتمامي بالحديث مـع إدواردز حول خدمة كـيرت. لكن لم يتم ترتيـب المقابلـة. اعتقدت أن شخصاً مثل إدواردز يجب أن يتحـدث مع شخص فقد ابنه في معركة. هل توجد قضية أكبر تعرض هنا حول الديمقراطيين والجنود؟ أشعر أحياناً أنه ليس لـدي حزب. قام جون كيري بالفعل بإرسال بطاقـة إلى جيني وإلي، لكنني أعتقد بالفعل أن هناك شعوراً بالقلق بين الناشطين الديمقراطيين بشأن «الجنود» بسبب معارضة الحرب.

5 أيلـول 2004: متابعـةً لرسالتـي السابقـة حول لقـاء دوبيا، لم يحدث ذلـك. لشعوري بالالتـزام بتكـريم كيرت، لتسلـم عرض قائـده الأعلى للتكـريم والتعزية فقـد ذهبت. كنا مجـرد جزء من الحضور. كمـا أن الزوجة السابقة التي استلمت الدعوة من منظمة الحزب الجمهـوري المحلية لم تكـن سعيدة أيضـاً. كان علينا الاستماع إلى «خطـاب مكرر»، نسخة مطولـة عـن ذلك الذي ألقاه في المؤتمر. كان يتكلم على «الحرب ضد الإرهاب» وكأن العراق جزء منها دون أي تمييز بين الحالتين. هل هذا «كذب» أو «انطباع خاطئ»؟، هل هو تضليل، هل هذا صحيح وهو يعلم ولا يريد أن يطلع أحد على معلوماته؟ ماذا على المواطن أن يفعل؟ لقد حظي بكثير من التصفيق لتخفيض العبء الضريبي ولعدم رغبته بأن تتحكم الحكومات الأجنبيـة في سياستنـا، أو أن يكـون جنودنا تحت قيـادة حكومات أجنبيـة. ذكر أحدهم في مكان ما أن علاوي مارس هذا التحكم في النجف والفلوجة. أفترض أن هذه نقطة جيدة في انتخـاب رئاسي، لكن أين جون كيري؟ هل مـن الصحيح أنه لا يريد الكلام على العراق لأن «قاعـدة» الحزب الديمقراطي تريد الانسحـاب ببساطة؟ هذا الحديث عن «مجتمع الملكية» يبـدو تمزيقاً للصفقة الجديدة/ شبكة أمان المجتمع العظيـم/ الميثاق الاجتماعي. نحن في

مــأزق. سأكــون سعيداً حــين تنتهي الانتخابات. فأنــا لا أستطيع أن أحتمــل المزيد من هذا الهراء المستفيض.

11 أيلول 2004: أمضى حفيدي كولن الليلة الماضية عندي. تناولنا البوشار، وزرنا الحدود، وشاهدنــا حرب النجوم، وصباح اليوم سبحنا في البركة (كانت باردة بعض الشيء). الحياة تستمــر، ســواء كنت مستعداً لذلك أم لا. علي أن أقــول: إن كيرت لم يغب عن بالي قط. ربمــا لا يكــون هــذا صحياً، لكن هكــذا تسير الأمور. أنــا في السابعة والخمســين من عمري، جــورج، ربمــا لا أتعافــى من هذا أبداً بشــكل نهائي. وربما علــي ألا أتعافى منــه. الفكرة هي أن كــيرت تركنــي لكلماته: «عشــ حياتك، أيها الرجــل العجوز» وإن غاريســون كيلور ذكر في قصيدته يوم التأبين: «ولنعش الحياة الطيبة التي كانوا سيعيشونها». لم يتم تحديد ذلك بعد. لدي اثنان من الأبناء الأحياء واثنان من الأحفاد. ومع ذلك فأنا لا أعلم ما أفعل بهذا كله.

4 تشريــن الأول 2004: ما الأفضل لأمريكة والعراق الآن؟ هذا هو السؤال؟ هل هو عراق أفضل؟ هل هذا ممكن؟ لماذا دخلنا العراق؟ ما الذي يسوغ بقاءنا؟ لأجل ماذا أزهقت أرواح الأمريكيــين الغالية؟ هل يمكــن تحقيق شيء يستحق التضحية؟ هل هنــاك أشياء لا يعرفها أحــد إلا الرئيس ومستشــاروه؟ لا أحد في مجلس الشيوخ أو المنظمات «الفطنة» أو «المطلعة»؟ هــل ذلك يسوغ التضحية؟ وكم من التضحيات يمكــن تسويغها أكثر؟ فيما يتعلق بنا يصعب أن نقبــل تحويل العراق إلى حرب أهلية. ليس لدي الحــق للدفاع عن التدخل المستمر بسبب تضحيتــي التي ستقود إلى كثير مــن التضحيات. ما الأفضل لأمريكــة والعراق؟ ما الحقيقة علــى أرض العــراق؟ ما الذي يمكن تحقيقه؟ هــل يستطيع كيري وفريق مــن اختياره القيام بذلك؟ إنها قفزة كبيرة للإيمان.

وفي معظم الوقت لا يعنيني شيء من هذا. أنا أريد ولدي، أريد ولدي.

لم تكــن الجبهــة الداخلية لحرب العراق كتلك التي كانت في الحــرب العالمية الثانية، ولم تكــن كمــا كانت في فييتنام. فلم توحد الأمريكيين في خطــوط الأحزاب ضد تهديد لوجودهم (قــام الحــادي عشر من سبتمــبر / أيلول بذلك، لكــن ليس العراق). لم تكــن هناك مواثيق حرب، أو دوافع جماعية، أو دعوة شاملة، أو تعبئة وطنية. لم نكن جميعاً في الأمر معاً. كما أنه

لم يمـزق البلاد. حالما بـدأت الحرب، طوت الحركة المضادة للحرب خيمتها وعادت بسرعة. شهـدت الذكرى السنوية الأولى والثانية للغزو مظاهرات كبيرة في أوروبة وأجزاء من الشرق الأوسـط وآسيــة، لكن في هذه البلاد، تم إسكات المعارضة المنظمة بضرورة دعم القوات التي تتعرض للأذى. كما أن السهرات على ضوء الشموع كتلك التي عرضت صور القتلى من شباب أيواه في دي موا كانت تكافح للحصول على اتجاه محترم للمعارضة.

هــذا لا يعني أن الحرب لم تكن متناقضة: فلم تكن أي مغامرة خارجية أكثر تناقضاً من هذه المغامرة منذ حرب فييتنام. على مستوى معين -كانت رأي نخبة، تم تضخيمه في وسائل الإعــلام- ولـد العراق كلمات مريــرة كأي حدث في التاريخ الأمريكـي الحديث. لكن معظم المواطنــين الأمريكيين لم ينقلبوا على غيرهم من المواطنين الأمريكيين بغضب، كما أنهم لم يشتركوا في قضية مشتركة. كانت حرب العراق بعيدة عنهم بشكل غريب. وكان من الصعب دائماً تصــور المكان، فلم تدخل الحرب الخيال الشعبي في الأغاني التي حفظها الجميع كما جـرى في الحروب السابقة. لم يكن من المحتمـل أن يقضي روائي ستة أشهر في بغداد ويعود لتحديــث روايــة (From Here to Eternity) أو (Dog Soldiers). الرواية الأمريكية الوحيدة الضعيفة التي أنتجتها الحرب حتى الآن، نقطة التفتيش (Checkpoint) التي كتبها نيكولسون بيكـر، وهي حوار علــى الغداء في غرفة فنــدق في واشنطن بين صديقــين قديمين، أحدهما يستعـد لاغتيال جورج و. بوش، كانت ترميزاً ممتــازاً لثقافة سياسية أخذت فيها الهيستريا مــكان التفكير. لم يكن لرواية بيكر علاقة بالعراق، بـل ببشاعة السياسة في هذا البلد. وقد صنــع مايكل موور، الجواب اليساري لروش ليمبو، فيلمــاً لاقى نجاحاً كبيراً صور فيه عراق صــدام مكاناً سعيــداً يلعب فيه الأطفال بالطائرات الورقية. قــدم العراق شاشة فارغة كان للأمريكيــين الحرية في أن يعرضوا عليها مــا يشاؤون، ولأن قلة فقط من الأمريكيين لم تكن لهــم مصالح مباشرة هناك، فلم يرَ كثير منهم إلا صورة مشاعرهم. بالطبع كان الاستثناء هو الجنود وعائلاتهم الذين حملوا أعباء الحرب كلها تقريباً.

كانــت هذه الحالة للشؤون في الجبهــة الداخلية بشكل ما التطــور الطبيعي لجو سياسي ازداد تسممــاً مــدة عقد من الزمــن. أنتجت حروب الثقافــة كرهاً لكلينتــون، مما أدى إلى عزلــه، وأعقب ذلك الانتخاب المتنافس عليه عام 2000، وبعدها كره بوش الذي كان شديداً

ومجنوناً مثل سلفه. وقد قدم العراق مستوى من الانحدار. وبينما كان قتال الشوارع في أواخر ستينيات القرن العشرين نتيجة لحرب فييتنام، ولم تكن حروب الكلمات في أوائل القرن الحادي والعشرين نتيجة للعراق، بل كان الأمر معكوساً.

كانت الحرب الأولى للمدونين، والصفات المميزة للشكل -الاستجابة الفورية، والهجوم على الشخصيات، والبعد عن الحياة، وغرفة صدى الأصدقاء والأعداء- قد حددت نوعية الجدل حول العراق بشكل أفضل كثيراً من التحليلات المسوغة والعروض التي تختفي سريعاً عن الأنظار في الصحف المسؤولة ومجلات السياسة. من زعماء المدونين، آندرو سوليفان الذي كان له أفكار ثانية مكرمة حول إدارة بوش والعراق، وقد رد على أخبار أسر صدام في كانون الأول 2003 بأن كتب: «كان يوم فرح. لم يعد هناك ما يقال. فرح». كان قد سلم إحدى عشرة مكافأة وهمية لليساريين الذين عبروا عن سعادة غير كافية أو عبروا بصراحة عن حزنهم لتلك الاخبار. وفي رد على تصريح لمدون عراقي شكر فيه قوات التحالف من قلبه، كتب سوليفان على جهاز الحاسوب الخاص به في واشنطن: «على الرحب والسعة... لقد قام رجال ونساء قواتنا المسلحة بأكثر الأعمال صعوبة. إنهم يستحقون منا شكراً لا يقدر. لكننا جميعاً قمنا بأدوارنا». كان فرح سوليفان غبطة حقودة ونرجسية، وقد مسح بها وجوه خصومه. منذ مدة ما قبل الحرب مروراً بالغزو إلى الاحتلال والتمرد، كان اليمين الصاعد المنتصر واليسار الضعيف المتشكي يهتمون بهزيمة الآخرين ويسعدون أكثر من اهتمامهم بحالة العراق والعراقيين. ففي هذه البلاد، كان موضوع العراق دائماً تقريباً يتعلق بربح الجدال.

كان هذا أوضح ما يكون حين سافرت من مكان لآخر. كنت أعود من العراق بكم كبير من التناقضات الواضحة في ذهني ككل وجه رأيته أو صوت سمعته: لقد كان تحريراً، كان احتلالاً، وقد كان العراقيون متفائلين، كان العراقيون غاضبين؛ كانت هناك فرصة للديمقراطية، كانت هناك منطقة إرهاب؛ كانت سلطة الائتلاف المؤقتة تعمل بجد، لم تكن سلطة الائتلاف تحقق شيئاً؛ كان الجنود الأمريكيون طيبين، كان الجنود الأمريكيون متهورين. ثم كنت أجلس لتناول العشاء مع مجموعة من ذوي الفكر التقدمي الذين يريدون جميعاً معرفة الوضع هناك، وقبل أن أصل إلى نصف الطريق لرواية واحدة مع عراقي واحد، كان المهاجم يأتيني بقوة مدهشة، ويتحول الموضوع إلى الحديث عن خطايا إدارة

بوش. وكان العكس صحيحاً، من الطرف الآخر، في الأعمدة والبرامج الحوارية للمعلقين اليمينيين: كل قصاصة من الأخبار الجيدة -اعتقال كبار البعثيين، إعادة افتتاح المتحف- كانت تصبح دليلاً حاسماً على أن الأمر ينجح. كان الجميع يعلمون إن كان الأمر ينجح أم لا، وكان السؤال يأتي عادة مثقلاً، والأفضل أن تكون الإجابة سريعة وبسيطة. لم يكن هناك كثير من الناس في أمريكة يستطيعون احتمال التناقض الذي يعيشه العراقيون كل يوم.

الذهاب إلى العراق بالفعل لم يكن من شأنه أن يتدخل في هذا الاكتفاء الذاتي العقلي. سافر كريستوفر هيتشنز، الذي نشر للتو كتاباً بعنوان A long Short War: The Postponed Liberation of Iraq حرب قصيرة طويلة: التحرير المؤجل للعراق، في صحبة بول ولفوويتز في صيف 2003، وأمضى عدة أيام مع نائب الوزير، ثم عاد ليخبر محطة فوكس نيوز أن الأمور كانت تنجح بشكل رائع، حيث كان الأمريكيون مشغولين بإعادة الإعمار، وجمع المعلومات الاستخباراتية، ودحر البعثيين، وبناء صداقات مع الناس، لم تغط الصحافة شيئاً من ذلك. «شعرت بالانزعاج؛ لأنه كان علي الذهاب إلى هناك بنفسي للحصول على معلومات عن أي من ذلك»، اعترف هيتشينز لمذيع محطة فوكس نيوز. في شهر آذار اللاحق، بينما كانت الحرب الطويلة القصيرة تظهر إشارات على أنها تتحول إلى حرب قصيرة طويلة، هبط فريد بارنز، المحرر بصحيفة Weekly Standard المؤيدة بنشاط للحرب، في مظلة في المنطقة الخضراء، واكتشف أن الشيء الوحيد الخاطئ في عملية الحرية العراقية هو العراقيون. كتب بارنز: «إنهم بحاجة إلى تعديل موقفهم، يتفق الأمريكيون الذين قابلتهم هنا في أثناء عشرة أيام على أنه من الصعب التعامل مع العراقيين. إنهم متجهمون ومشككون ويفكرون في المؤامرات». لم يكن هذا رأي الصقور من أمثال بارنز قبل الحرب، لكن كان لا بد من وجود ما يفسر جميع العقبات التي في الطريق المؤدي إلى ديمقراطية ناجحة في العراق، وذلك لن يحدث إلا بعد انتشار الامتنان للإحسان الكبير الذي قامت به دولة لأخرى. وقد زارت نعومي كلاين، المعلقة الصحفية في مجلة Nation المعارضة للحرب بشدة بغداد في الوقت نفسه الذي زارها فيه بارنز، ووجدت أن التمرد كان يزداد؛ لأن كثيراً من العراقيين يشاركونها آراءها المعارضة للعولمة. في العراق كان من الممكن دائماً أن تثبت أنك كنت على حق طوال الوقت.

ولما كانت حرب العراق بدأت بالأفكار، فقد كانت تعاني التجريد. لكن بعد أن اتخذت هذه الأفكار الشكل الفعلي في الستر الواقية من الرصاص والمتفجرات بوقت طويل، استمر أكثر المشككين من المؤيدين والمعارضين للحرب برؤيتها والحديث عنها «بالمصطلحات الكبيرة المجردة» للمؤرخ الفرنسي مارك بلوك. كانت الكلمات الأساسية في العراق هي «الإمبريالية» و«الديمقراطية» و«استقلالية السياسة الخارجية» و«العولمة» و«أسلحة الدمار الشامل» و«الاستباق» و«الإرهاب» و«حكم الحزب الواحد» و«المحافظة الجديدة» و«الاسترضاء». التقيت بغسان سلامة، المستشار السياسي السابق لسيرجيو فييرا دي ميللو Sergio Vieira de Mello، في لوبي مقر الأمم المتحدة بنيويورك، بعد شهر من نجاته من تفجير في بغداد. بدا سلامة شاحباً، وقال: «العراق بحاجة إلى أن يتحرر، أن يتحرر من الخطط الكبيرة. في كل مرة كان الناس يذكرون ذلك في السنوات الأخيرة، كان يرتبط بأفكار كبيرة: الحرب ضد أسلحة الدمار الشامل، وإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، وأخيراً الحرب ضد الإرهاب وأنموذج للديمقراطية. ولهذا ترتكب جميع هذه الأخطاء. إنها ترتكب لأن هناك من يفكر في العراق دوماً بصفته خطوة أولى لشيء آخر».

سمح بعض العقديين المؤيدين للحرب للأخبار السيئة من العراق أن تعترض تقدمهم، بينما كانت أعينهم على هذه الأمور العالية. لكن إما أنهم رفضوا أن يصدقوا، فكانوا يلقون اللوم على وسائل الإعلام والمتخاذلين بأنهم يخفون الحقيقة، أو أنهم واصلوا الأخذ بالنظرة الطويلة للتاريخ التي لا يكاد يحللها نسف مئة عراقي أو عشرة أمريكيين في هجوم انتحاري. لكن هذا كان صحيحاً أيضاً على الطرف المعارض للحرب من السجل. وقد تعلمت من التجربة أن القصص الفردية للعراقيين الذين يكافحون ضد الخطر، وللحصول على حياة أفضل لأنفسهم ولبلادهم كانت تطرح جانباً بمجرد أن أرويها. كان الرد سريعاً ومؤكداً: «هذه الحرب غير شرعية، وهي غير أخلاقية. لا يمكن للكذب أن يأتي بخير». على الرغم من المصالح الكبيرة والبدائل المروعة، لم يظهر معظم المثقفين والسياسيين المعارضين للحرب اهتماماً بالنجاح. حين خاطر العراقيون بحياتهم للانتخاب، رفضت أريانا هوفينغتون الانتخابات وعدتها «لحظة من لحظات كوداك». لقد كانت الحرب حرب بوش، وإذا أخفقت، فسيكون ذلك إخفاق بوش.

كانت أمريكة في بداية القرن الحادي والعشرين تبدو متحيزة ومقسمة وصغيرة لدرجة أنها لا تستطيع تدبر شيء كبير وصعب كالعراق. كانت كوندوليزا رايس وغيرها من كبار المسؤولين مولعين بتشبيه العراق بألمانية بعد الحرب. لكن كانت هناك فجوة كبيرة بين الفكر والجهد الرائع لأفضل العقول التي ذهبت لدحر الفاشية وإعادة بناء ألمانية واليابان، وبين الاهتمام المشاكس الأناني الذي يعود على العراق. فالأول أنتج دليلاً من أربع مئة صفحة عن احتلال ألمانية؛ والآخر أنتج نقاطاً للحديث.

إن ما جعل هذه البيئة السياسية غير مناسبة للعراقيين بالتحديد هو أن إدارة بوش، بدلاً من تزوير الحرب لجعلها قضية وطنية، نفذتها من البداية، وكأنها انتخابات أولية في ساوث كارولينا.

في أعقاب 11 سبتمبر/ أيلول، مُنح الرئيس بوش ما لم يحصل عليه إلا قليل من الرؤساء: الوحدة الوطنية والنية الطيبة لكلا الحزبين. في الأيام التي أعقبت الهجمات الإرهابية، رأينا الخطوات الأولى لشيء يشبه تعبئة ذاتية شعبية. الصفوف الطويلة للمتبرعين بالدم، والمتطوعين المتدفقين من أنحاء البلاد إلى مانهاتن، والجهود العامة الباحثة لفهم الإسلام: اتخذ الرد نغمات شخصية جدًا. قال لي منتج فيديو شاب عاطل عن العمل ينتظر دوره للتبرع بالدم في بروكلين: «تبرت؛ لأكون جزءاً من شيء ما. في جميع أنحاء العالم يقوم الناس بشيء من أجل قيمة عليا. كنت لا أعرف أين أنا إلى أن استطعت أن أقول: إنني قمت بشيء أثر في الإنسانية». لم يكن من الممكن أن يستمر الانتشار المحموم للروح الجماعية، لكن شدتها كانت توحي بأن البلاد كانت قد صحت من حلم يقظة جماعي. بدت أسطورة قرن من الاهتمام بالذات تدرك أن هناك فرصة تاريخية للأمل في شيء أكبر.

كان من الملاحظ في ذلك الوقت أن الرئيس بوش لم يفعل شيئاً لاستغلال هذه الرغبة الملموسة بين الناس العاديين للمشاركة في جهد أكبر. قيل للأمريكيين أن يذهبوا للتسوق ويحذروا من الأنشطة المريبة. كان بيرل هابر، وكان اليوم السيئ في سوق البورصة؛ لم يكن شيء مماثلاً، وكان كل شيء مماثلاً. تساءل جوزيف بايدن: «كم سيكون الأمر ملحاً إذا أخبرتكم أن هذه أزمة كبيرة، وفي الوقت الذي نسير فيه نحو الحرب، أعطي أكبر استقطاع للضرائب في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية؟» لم يترك استقطاع الضرائب البلاد في أزمة

مالية فقط في أثناء الحرب؛ لكن عدم المساواة فيه تركت أثراً سيئاً في الروح المعنوية. لم يكن من قبيل المصادفة أن الرئيس أخفق في الدعوة إلى تضحية مشتركة متساوية. فقد أتى ذلك مباشرة من الروح السائدة لحركة المحافظين الجديدة التي جاءت بها رئاسته إلى السلطة المطلقة. بعد سنوات من الهجوم المستمر على العمل الجماعي، بقي هناك أساس عقدي يمكن لبوش أن يقف عليه ويسأل ماذا يمكن للأمريكيين أن يفعلوا لهذه البلاد؟. لم يُطلب إلينا بإلحاح أن ندرس اللغة العربية، أو أن ننضم للسلك الأجنبي أو مجموعات المساعدة الدولية، أو أن نطور مصادر بديلة للطاقة، أو نشكل احتياطاً مدنياً لحالات الطوارئ، أو حتى أن ندفع كلفة الحرب في وقتنا نحن. سيتحمل الجيل الأمريكي القادم أعباء الحرب، كما يتحملها مئات الآلاف من الجنود المتطوعين في هذا الجيل.

ربما كان ذلك قراءة سياسية فطنة من جهة بوش، وإدراك بأن الأمريكيين (بعد كل مشاعرهم التي أعقبت 11 سبتمبر/ أيلول)، لا بد أن يعودوا للاسترخاء على أرائكهم. مع أنه بدا من العدل أن نسأل: كيف يمكن لجسم سياسي غير متناسق كهذا أن يتغلب على العمل الطويل الشاق لوقت الحرب؟؛ وكيف يمكن أن نكون مقتنعين بتصدير القيم الديمقراطية حين تظهر في ديمقراطيتنا إشارات كثيرة على الضمور؟؛ وكم من التضامن نتوقع أن نحشد للأفغان والعراقيين حين يُطلب إلينا ألا نشعر إلا بالقليل منه تجاه بعضنا.

لذا فقد كانت الأشهر التي أعقبت 11 أيلول فرصة ضائعة، لاستخدام سيل الطاقة المدنية، ولتشكيل حرب جديدة ضد الراديكالية الإسلامية بصفتها صراعاً قومياً. كان يجب ألا يكون على الخبراء في وكالات الاستخبارات والقوات الخاصة فقط، وإنما أيضاً على المواطنين الأمريكيين العاديين أن يشنوا تلك الحرب. وكانت تلك الحرب يجب أن تشن على عدة جبهات، وبأدوات كثيرة، ليست فقط عسكرية، وإنما أيضاً فكرية، ودبلوماسية واقتصادية وسياسية وثقافية. كانت هذه رؤية مهندسي الحرب الباردة في بدايتها، الذين قرأ عنهم كريس فروشيسر في منهاج تاريخ جامعي، وأصبح يحترمهم أكثر حتى بعد 11 سبتمبر/ أيلول. لكنها لم تكن رؤية الرئيس. كانت خطابات بوش محلقة وملهَمة، لكن أفعاله أظهرت أن لديه إستراتيجية ضيقة لخوض الحرب، بلغت إيجاد الإرهابيين ومن يدعمهم وقتلهم. أما البرامج الأخرى، كاستقطاعاته الضريبية وسياسة الطاقة والمعارك المريرة

التـي أثارتهـا، فقد مزقت وضوح ووحدة الحادي عشر من سبتمـبر/ أيلول. استمر بوش في الحكـم من قاعدته العقدية. كانت رسالته للشعب بشـكل أساس: «ثقوا بي»، وانزلق الشعب في استسلام خائف.

كل ما بقي من التماسك الوطني حتى منتصف عام 2002 فسد في الحشد لغزو العراق. فقد فرض البيت الأبيض تصويتاً للكونغرس على قـرار الحرب قبل شهر من الانتخابات النصفية عـام 2002، في جو من الإهانات المتحيزة. فبينمـا كان الجمهوريون في البيت الأبيض ومجلس الشيوخ يتهمون زملاءهم الديمقراطيين باسترضاء صدام كان الآخرون في أثر الحملة يتهمون خصومهم بإهمال واجب الدفاع عن البلاد بسبب معارضة الديمقراطيين لمشروع قانون الأمن الداخلـي الذي تم تصميمه لإضعـاف اتحادات الخدمة المدنية. (فبعد أن رفض البيت الأبيض فكرة إدارة الأمن الداخلي من البداية، كتب مشروع القانون بعد ذلك بلغة أجبرت الديمقراطيين علـى الاختيار بين فكرتهم وبـين أساس عملهم). وقد قام جوزيف بايـدن، الذي كان يعمل مع زميله ريتشارد لوغار، الديمقراطي رفيع المستوى في لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، بإعـداد قرار حرب وضع بعض القيـود على قدرة الإدارة على التصـرف، مما قلل بعض الشيء مـن احتمال ذهـاب أمريكة للحرب دون مشاركـة دولية، لكنه أعطى فرصـة أكبر لكسب دعم حزبـي. ناور البيت الأبيض لإعاقة مشـروع القرار الذي كتبه بايدن ولوغـار، وأصدر مشروعاً لتصويـت أكثر تحيزاً. كانـت إستراتيجية المستشار السياسي لبوشـ، كارل روف، التي أثمرت في شهـر تشرين الثاني، حيث استعاد الجمهوريـون دعم مجلس الشيوخ، وأضافوا أغلبيتهم في البيـت الأبيض. لكن الإدارة تركـت أقلية ديمقراطية تشعر بالمـرارة وناخبين منقسمين بشكل متزايد، بينما كانت تحضر لأخذ البلاد إلى حرب كبرى.

كان الرئيـس يسلـك طريقين في آن واحد: إعادة تشكيل السياسـة الأمريكية الخارجية، وتعزيـز قبضـة حزبه على السلطة. وربما لا نأتي بجديـد إذا أشرنا إلى أن هذين الطريقين قـد يتعارضـان في النهاية، مما يعرض المصالح الوطنيـة للمخاطرة. في خريف عام 2002، لم يكـن مـن الممكن بعد تخيل سياسة تستخدم كلا الحزبـين وحلفاء أمريكة الديمقراطيين في القضـاء علـى الاستبداد في العراق. فقد كانـت سياسة كهذه تتطلب مـن الإدارة العمل بمرونـة وانفتاح أكثـر ممـا أرادت أن تعمل بـه. وكـان المفروض عرض الدليل على وجود

أسلحة غير تقليدية دون مبالغة أو خداع. وفور عودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق، كان مـن الواجب السماح لهم بأداء عملهم بدلاً من إضعافه بحملة الطعن ضدهم. كان يجب أن تكـون شهادتهم أمام الكونغرسـ صريحة وغير مراوغة. وكان يجـب الاستماع إلى موظفي الإدارة الذيـن قدمـوا آراء مخالفة أو توقعات متشائمة بدلاً مـن إسكاتهم أو طردهم. وكان يجـب الترحيب بخبراء بناء الأمة بدلاً من إغـلاق الأبواب في وجوههم وإن كان لديهم ما لا يريد البيت الأبيض سماعه. كان يجب معاملة المواطنين الأمريكيين بصفتهم راشدين وليس كما اقترح رئيس هيئة الأركان في إدارة بوش، آنردو كارد، مرة أطفالاً في سن العاشرة.

وبعـد الغزو، كان يجـب إقناع الحلفاء الأوروبيين بالمشاركـة في الجهد الذي كان بحاجة ماسـة إلى مساعدتهـم. وكان يجب دعـوة الشـركات الفرنسية والألمانيـة والكندية لتقديم عروضـ للحصول على العقـود، وليس تقييدها بقرار وقعه بـول وولفوفيتز (الذي كتب مرة أن القيـادة الأمريكية تتطلب «أن تثبت أن أصدقاءك سيكونون تحت الحماية والرعاية، وأن أعـداءك سيعاقبون، وأن من يرفض دعمك سيعيش لينـدم على ذلك»). كان يجب إخضاع المتعهديـن الأمريكيين المقربين من البنتاغـون لفحص استثنائي، ليس فقط للتأكد من عدم إهـدار مليارات الـدولارات في العراق، بل لتجنب مجرد مظهر الفسـاد. كان يجب أن يبقى الكونغرسـ على اطلاع دائـم وبصراحة على الوضع على الأرضـ. وكان يجب إعطاء طوني بلـير شيئاً مقابل دعمه الصامد، كجهد جاد في حـل المشكلة الإسرائيلية الفلسطينية. وكان يجب إحضار الأمم المتحدة إلى العراق بصفة شريك مكافئ، وليس أداة لراحة أمريكة. ربما كان يجـب حتى أن يكون كبير المدنيين في العـراق ديمقراطياً، أو جمهورياً معتدلاً كالجنرال المتقاعـد أنطوني زيني، الذي وصفه مسؤول في الإدارة بشكل خاص بأنه أكثر شخص مؤهل للعمـل الـذي يقوم به بول بريمر. قال المسؤول: («عليـك أن ترتقي فوق السياسة، وعليك أن تختـار الفريق الأفضل، عليك أن تكون مثل فرانكلين روزفلت»). وكان يجب أن تختار سلطة الاحتـلال من تعينهم من السياسيين قدر الإمـكان من الخبراء ذوي الكفاية غير المتحيزين الذيـن يتمتعـون بخبرة في الخارج. كان على سلطة الاحتلال أن تركز على المجتمع العراقي، لا أن تكون مجرد سلاح بيد البيت الأبيض. وكان يجب ألا تكون تصريحات مكتبها الإعلامي اليومية مثيرة للضحك.

وحين ظهر عدم وجود أي من أسلحة الدمار الشامل في العراق، كان على الإدارة أن تعترف للعالم بذلك. كان على الرئيس أن يقدم خطاباً يذاع على قنوات التلفزة الوطنية، يذكر فيه ما قاله كبير مفتشي الأسلحة، ديفيد كاي: «جميعنا كنا مخطئين تقريباً». كان على الرئيس أن يحذف العبارات المراوغة مثل «أنشطة برامج تتعلق بأسلحة الدمار الشامل» من خطابه. كان يجب معاقبة الموظفين والجنرالات المسؤولين عن الفضيحة والإخفاق، وليس التربيت على أكتافهم أو تقليدهم ميداليات الحرية. وحين طلب الصحفيون من الرئيس أن يذكر خطأً واحداً ارتكبه في العراق، كان عليه أن يذكر لهم خمسة أخطاء، ويطمئن البلاد أن هذه الأخطاء يتم تصحيحها؛ لأنهم كانوا قادرين على تحديدها. كان عليه أن يستجمع كل مهارته البلاغية؛ ليفسر للبلاد أن إنهاء الاستبداد في العراق ومساعدته في أن يصبح بلداً ديمقراطياً كبداية للتغيير في الشرق الأوسط هو، (على الرغم من الإخفاق الفشل في إيجاد الأسلحة) الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، وأنه ضروري للأمن الأمريكي، وأنه يستحق الجهد الذي ستبذله الأجيال. في الحقيقة كان عليه أن يشرح ذلك قبل الحرب، حين لم يجد المفتشون أي دليل على وجود الأسلحة، وبذلك يسمح للبلاد أن يكون فيها مناقشة فعلية للسبب الحقيقي للحرب، وحين تأتي الحرب، لا تأتي وسط الشكوك والمفاجآت المنتشرة، ولن تبقى أمريكة وحدها في العراق.

الشخصية قدر. فما منع حدوث أي من هذا كان قبل كل شيء شخصية الرئيس، فقد كان بوش يدير حربه، كإدارته لحملاته السياسية، في غياب الفضول والنقد الذاتي، وبتقديره للثقة المطلقة، والولاء الشديد الذي يمنحه ويطلبه. كان دائماً يعبر عن انطباعه بأن العراق والحرب ضد الإرهاب كانت اختبارات شخصية. وكلما فجر انتحاري نفسه، كان يحاول أن يهز إرادة جورج بوش. فإذا بقي بوش صامداً، كيف يمكن أن تخفق أمريكة؟ كان يحب أن يسمي نفسه رئيس زمن الحرب، وكان يحتفظ بتمثال نصفي لبطله وينستون تشرشل في المكتب البيضاوي. لكن تشرشل كان يقود حكومة وحدة وطنية، ولم يقدم لشعبه إلا الدم والتعب والدموع والعرق. كان بوش يتبع باستمرار برنامج العمل الجمهوري المتحيز، وهو يخوض الحرب، وكان ما يقدمه هو توقعات متفائلة، واقتطاعات ضريبية دائمة، وعزيمة مثيرة.

مـرة فسر أحد مستشاري بوش للصحفي رون صَصكيند النظرة العالمية للبيت الأبيض: بينمـا كان خـبراء بناء الأمة ونقاد الحـرب ورون صصكيند يعيشون «فيمـا نسميه مجتمعاً قائمـاً علـى الواقع» يؤمن النـاس فيـه «أن الحلول تأتي مـن دراستك المتعقلـة للواقع القابل لـلإدراك»، لسـوء الحظ «لم تعد هذه هـي الطريقة التي يسير بها العـالم فعلاً». فالطريقة التـي يسـير بها العالم الآن تصـل إلى نبذ العقل، والذكاء المشـكك، وكل قائمة قيم التنوير. «نحن الآن إمبراطوية، وحين نتصرف، ننشئ واقعنا. وحين ندرس ذلك الواقع -بتعقل، كما ستفعلـون- سنتصـرف من جديد، وننشئ حقائـق أخرى جديدة، يمكنكـم دراستها أيضاً، وهكذا تصنـف الأشياء. نحن ممثلو التاريخ»، وختم المساعد قائلاً: «وأنتم جميعاً، لن يبقى لكم إلا أن تدرسوا ما نفعله نحن».

هذه هي رئاسة بوش دون الخطابات الملهمة، التي لها نبرة لينينية أكثر منها مسيحية، لا تقرر فقط أن تعيد صنع العالم وفق إرادتها التي لا تفسير لها، لكن أيضاً أن تزيح كل الخصوم مـن طريقها. كانت هناك نقطـة ضعف خطيرة فلسفياً وعملياً في مشـروع تلك الإدارة لكي تصبـح حاملـة القيم الديمقراطية للعالم؛ فقـد كانت الديمقراطية أصـلاً تقوم على النقد الذاتـي. لكـن لأن الرئيس كان يصلي دائماً بـأن يكون «أفضل رسول ممكـن لإرادته»، فقد كانـت سياسته في العراق ستنجح بشكل أساس، بالإيمـان بذلك، بالتظاهر بالإيمان بذلك، وبفرض هذا الانضباط على إدارته، بحيث لا يظهر أي مظهر مخالف، كان يحقق الحقيقة التي تتبع. كان الإيمان أو الاستكبار أو كلاهما إستراتيجية للنصر.

سألـتُ ريتشارد بيرل إن كان كبـار المسؤولين في إدارة بوش قد راودتهم أي شكوك بشأن العراق؟ فقال: «لدينا جميعاً شكوك طوال الوقت، لكننا لا نعبر عنها، طبعاً ليس في مناظرة علنيـة. فهذا قاتـل. فالتعبير عن الشكوك يعطي الخصوم مـا ينتظرونه بالضبط. وقد قال بيرل نفسه علناً بشكل أساس: «قلت لكم ذلك». وقد قال لمنتج أفلام وثائقية فرنسي: «اعتقد معظم النـاس أنه سيقتل مئات الآلاف من النـاس، وأنه ستكون حرباً طويلة ودموية. اعتقدت أنها ستنتهي في أثناء ثلاثة أسابيع، ولن يقتل فيها إلا عدد قليل من النـاس. والآن، من الذي كان علـى حق؟» كان ذلك في البدايـة. لكن بينما أصبحت الحرب أطـول وأكثر دموية، كان بـيرل لا يـزال على حق، لكن بشكل مختلف: فلو كان خمسـة آلاف من أفراد المؤتمر الوطني

العراقي قد ذهبوا مع الأمريكيين كما أردنا، ولو تم تنصيب أحمد الجلبي رئيساً لحكومة انتقالية من البداية، لتجنبنا كل هذه المشكلات. وقد ترك مايكل روبن، وهو أحد المحميين الشباب من قبل بيرل، مكتب الخطط الخاصة وبعد ذلك سلطة الائتلاف المؤقتة، ليبدأ مهنة جديدة وهي الكاتبة، وكان موضوعه الوحيد هو غباء المسؤولين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية في إفساد العراق بعد الحرب، بعدم الاستماع إلى مايكل روبن وحلفائه من المحافظين الجدد في البنتاغون، الوزارة التي أدارت الاحتلال. اتخذ رامسفيلد ووولفوفيتز وفيث أو بريمر المعين من قبل رامسفيلد كل قرار مهم لمرحلة ما بعد الحرب. ولم يصرح أي منهم علناً بأي شك، أو حرف يدل على التدقيق الذاتي.

عمل ليسلي جيلب في البنتاغون في أثناء الأشهر الأخيرة لرئاسة جونسون، وأدار كتابة أوراق البنتاغون عن التاريخ السري لحرب فييتنام التي تم تزويده بها من قبل روبرت ماكنمارا قبل مغادرته المكتب. عبرت لجيلب عن تشككي بأن رونالد رامسفيلد قد استشار أحداً في البنتاغون في كتابة تاريخ سري لحرب العراق. قال جيلب ضاحكاً: «يمكنك أن تراهن، فالليبراليون فقط ينظرون للخلف ويقولون: إنهم كانوا مخطئين». أما المحافظون الجدد، فخلافهم، «يقولون: إنهم طُعنوا في الظهر. فليس من قبيل المصادفة أن الرئيس بوش لم يستطع في أثناء الحملة الإجابة عن السؤال إن كان قد ارتكب خطأً؟ لم أرَ أولئك الناس أبداً يقولون: إنهم ارتكبوا خطأً. كانت فييتنام حرباً ليبرالية. أما هذه فلا. إنهم ليسوا أغبياء، إنهم شديدو الذكاء. كما أنهم متهورون». وتابع جيلب في المقارنة بين بوش ورئيسه: «كان جونسون شخصاً مأساوياً. كانت ضرورة ألا يخسر الحرب هي التي تحركه. وكان يعرف أنه لا يستطيع الفوز بها. أما بوش فهو نسخة معدلة من جونسون؛ لأنه يظن أنه يستطيع الفوز. بوش هو المؤمن الحقيقي. نحن نتكلم على شخص لا تصله أي معلومات إلا عن طريق الخط الرسمي».

خدمت عقيدة الثقة الدينية الرئيس بشكل جيد في السياسة المدنية؛ فالصمود في زمن الحرب صفة أساسية، وبعد انتخابات عام 2004 لم يستطع أحد أن يشك بشكل مسوغ في قدرته بصفته سياسياً. فيما يخصه، أثبتت النتيجة صحة كل ما فعله، وأن كل نقاده مخطئون. قال الرئيس: «كانت لدينا لحظة محاسبة، وهي انتخابات عام 2004». أما في العراق الذي كان له واقعه الخاص، فلم ينجح هذا المنهج.

حين تحدث بوش عن قوة الحرية لتغيير العالم، كما قال في خطاب تنصيبه في مؤتمر الحزب الجمهوري في عام 2004، وبعد ذلك في خطاب افتتاح ولايته الرئاسية في كانون الثاني عام 2005، كان يؤثر تأثيراً عميقاً في الروح الأمريكية. أما خصمه الديمقراطي فقد كان بعيداً عن عزف مثل تلك الموسيقا. لكن حين بدا أن العراق لا يشبه تلك الرؤية الحالمة للرئيس في شيء –حين كان العراق يتدهور بشكل ملحوظ، ولم يعترف أحد في السلطة بذلك– كانت تلك الخطابات تثير إما الأوهام أو التهكم بين أفراد الشعب. كان ما يحدث في العراق وكيفية فهم العراقيين له هو الذي يحدد النجاح أو الإخفاق في الحرب. وكان إصرار الرئيس المستمر على نجاح الحرب يرغم الحكومة كلها على الموافقة على ذلك أو المخاطرة بإثارة غضب البيت الأبيض. لذا قامت بعض الوكالات بإصدار تقارير عن إعادة الإعمار جملت الحقيقة، وتنفس المسؤولون الصعداء مدة، لكن التوتر الكلي في العراق لم يتغير. لم ينتج عن تغطية الإخفاق إلا توسيع الفجوة في الإدراك بين واشنطن وبغداد، مما أدى بدوره إلى تقليل قدرة واشنطن على إدراك الواقع العراقي والاستجابة له. وتحول الخداع إلى خداع للنفس؟، إلى أن أصبح من الصعب معرفة أين ينتهي خداع الآخرين، ويبدأ خداع النفس. وفي النهاية أعلن الإخفاق عن نفسه بكل حال في سلسلة من التفجيرات الانتحارية واستنزاف بطيء للثقة العراقية وتمرد مفاجئ. فالحرب، بخلاف توقعات الميزانية وحملات الانتخابات الرئاسية، لا ترحم عند إخفاء الحقيقة. كان بوش يزيد من احتمال حدوث الهزيمة برفضه النظر إلى العراق بصدق.

لم يكن بوش مرضياً للشعب، كما كان معظم السياسيين ليتصرفوا لو كانوا مكانه. كان يعمل، بخلاف كلينتون من منطلق قوة وليس من منطلق ضعف. (لا يمكن أن يعرف المرء إن كان عرض التصميم التشرشلي هو في الواقع حالة موسعة للتعويض عن انعدام الأمن، إلا إذا كان يعرفه عن قرب). لم يبدُ أن أحداً يؤمن بخط الإدارة بحماس أكثر من الرئيس. لكن ما أراد بوش أن يؤمن به الأمريكيون كان له غالباً انعكاسات مدمرة في العراق؛ لأن ذلك الخط لم يكن يعتمد الحقائق، وبسبب حذف الخط الفاصل بين السياسة النظرية والسياسة التخطيطية. وقد شاهد السير جيريمي غرينستوك، مبعوث طوني بلير إلى بغداد، أن حكومتي واشنطن ولندن تحاولان توجيه العراق في اتجاه حاجاتهما السياسية،

واستنتج أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت مقيدة من قبل موجديها. قال لي غرينستوك في مكتبه المقابل لمكتب بريمر في القصر: «يجب أن تتخذ القرارات بشأن ما تفعل بناءً على معايير العراق وما حوله، وليس في سياق سياسي آخر وحوله، وإذا أردت أن يكون الشعبان الأمريكي والبريطاني سعيدين بالنتائج في العراق، فلا تنظر إليهما وتقول: ماذا يريدون بعد ذلك أو كيف علينا أن نحكم على هذا الحدث؟ انظر إلى العراق، وقم بإنتاج المادة التي تجعلهم راضين، لاتنتج العرض الذي قد يجعلهم راضين غداً. كانت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة متحفظتين إلى حد ما على الحاجة للحكم على الأمور وفق ما يحدث على الأرض».

فهم المستشارون حول الرئيس نقاط قوته، وما يحتاج إلى معرفته لاتخاذ القرارات. في اليوم السابق للانتخابات، ناقشت عمليات البيت الأبيض مع موظف إداري رفيع المستوى قال: إن المحيط الضيق والمغلق بإحكام حول بوش لم يؤدِ إلا للمبالغة في الميل الحديث للرؤساء الأمريكيين. «إنهم محاطون برجال ونساء من فئة: نعم، يخبرونهم بما يريدون سماعه، وعلى رأس القائمة جورج تينيت، أناس يستطيعون أن يشموا الزاوية السياسية ويقدموا المعلومات التي تعطي الرئيس تلك الزاوية السياسية. لا أحد يمشي إلى المكتب البيضاوي ويخبرونهم أنهم دون ثياب، ويصر على ذلك. عليك أن تصر على قولك. لا يمكنك أن تقوم بذلك مرة واحدة فقط». وتابع قائلاً: «أظن أنه من الخطر أن لدينا بيئة لا يستطيع فيها قائدنا الرئيس أن يكون على اطلاع جيد. هذا جزء لا يتجزأ من منصبه». وقال المسؤول: إن في هذه الإدارة أكثر من أي إدارة أخرى، فالبيئة «مخيفة، بسبب الرئيس والجو والناس هناك».

حين أُسقطت طائرة مروحية للنقل قرب الفلوجة في تشرين الثاني 2003، مما أدى إلى مقتل خمسة عشر جندياً كانوا ذاهبين في إجازة إلى بلادهم، انتظر الشعب من الرئيس أن يدلي بتصريح حول أسوأ حادثة قتالية في الحرب. لكن مر يومان ولم يقل بوش شيئاً إلى أن ضغط عليه الصحافيون في أثناء قيامه بجولة لتفقد ما خلفه حريق هائل في جنوب كاليفورنية، فقد وضع يده على قلبه وقال: «أنا أحزن كلما مات شخص. أنا أحزن؛ لأنني أعلم أن العائلة تتأذى. وهناك ألم عميق في قلب شخص ما. لكنني أريد فعلاً بأن أذكر الأحبة أن أبناءهم وبناتهم -أو الأبناء، في هذه الحالة- ماتوا لقضية أعظم من أنفسهم، قضية نبيلة،

هي أمن الولايات المتحدة». بدا أن الرئيس لم يكن يعلم أن اثنين من الجنود الذين كانوا على متن الطائرة كانوا من النساء. لو كان رئيس آخر مكانه -ريغان أو كلينتون- لما فاتته مثل هذه التفاصيل. لم تكن هذه لا مبالاة من جانب بوش، بل كانت إستراتيجية مقصودة بألا يقال له الكثير، وألا يغوص في مشكلات الحرب اليومية، وألا يسهر إلى ما بعد منتصف الليل كما كان يفعل لينكولن أو جونسون في غرفة العمليات، وتصبح الخطوط أعمق في وجهه، في انتظار وصول أنباء عن عدد الإصابات. كان عدم المعرفة جزءاً من إستراتيجية النصر. كان ذلك يمنع الأخبار أن تطغى على الرسالة التي وضعتها الإدارة لدورة كل يوم، كما أنها كانت تمنع تشويش الرئيس وإحباطه. وكانت تنجح من الناحية السياسية. لم يظهر قط أن بوش رئيس تحت الحصار. لم تسؤ الأمور إلا حين نسي أحد التفاصيل المهمة كخطة ما بعد الحرب.

كان هناك مثلاً موضوع ما يمكن فعله بشأن التوابيت التي تصل إلى قاعدة دوفر الجوية. منذ غزو باناما عام 1989، حين أظهرت شاشة مقسومة الرئيس بوش الأب يقدم خطاباً مع المنظر المهيب للجنود القتلى العائدين إلى الوطن، وهي صورة لم يكن البيت الأبيض يريدها، فأدرك الرؤساء القوة المقلقة للصورة وحاولوا تجنبها. وقد تبنى البنتاغون برئاسة رامسفيلد هذه السياسة وجعلها سياسة رسمية له: فليس هناك صور أو أفلام في دوفر. ومن جديد، حققت هذه الحركة نجاحاً سياسياً في إبقاء عدد القتلى الثابت يقتصر على الأمريكيين الذين لم يتأثروا شخصياً. وهذا أدى دوره في جعل حرب العراق حرباً بعيدة.

سألت كريس فروشيسر عن رأيه في السياسة؟ فقال: «نحن بحاجة إلى رؤية التوابيت، التوابيت الموشحة بالأعلام. الصقور بحاجة لذلك، فهم يحتاجون إلى معرفة أن هناك ثمناً يجب دفعه. هناك ثمن كبير يجب أن يُدفع. إذا لم تكن لديهم قدرة على اللعبة، فهم بحاجة لرؤية ذلك. كما أن الحمائم بحاجة إلى رؤية تكريم التضحية. فهم لا يرون ذلك دوماً». كان يريد أن يجمع ميداليات كيرت الأخيرة، وعلم جنازته المطوي وتقرير تشريح جثته وصورة للجرح في رأسه، وأن يأخذها جميعاً إلى الشارع في عروض تستمر خمس عشرة دقيقة في أنحاء البلاد. كان سيقول للقوميين: «تأنقوا واظهروا». وكان سيقول للمشككين في فكرة واجب الجندي. أو أنه لم يكن ليقول شيئاً على الإطلاق. كان يريد الناس أن يروا ببساطة.

إن فكـرة تقليل التهديـد الذي تشكله العقائـد الناشئة في الشرق الأوسـط لأمريكة عن طريـق تحويل السياسـة في المنطقة إلى الديمقراطية، بدءاً بالعراق، قد خطرت لإدارة بوش قبـل أن يظهـر عدم وجود أسلحـة. كان بعض المسؤولين يفكرون في ذلـك ويكتبون عنه منذ سنـوات، كمـا أن الرئيس كان قد خطط له في خطاب بمعهـد المؤسسات الأمريكي قبل شهر مـن الغزو. لكـن لم يكن ذلك السبب هو سبب الحرب الذي وقـع الشعب الأمريكي عليه، لم يكـن ذلك هو إيقاع التصريحات قبل الحرب؛ لذا فقد بدت الطريقة التي غيرت بها الإدارة الحجة فيما بعد حتى دون أن تعترف بذلك كطعم للوصول إلى شيء مختلف.

لكن الفكرة، على الرغم من التهكم حول استخدامها، كانت فكرة مهمة، وكانت تستحق أن تؤخـذ علـى محمل الجـد من قبـل المعارضـة السياسيـة في أمريكة، ومن قبـل الحلفاء حـول العـالم. إلا أن نقاد الحرب، بمـن فيهم قادة الحزب الديمقراطـي، رفضوا باستمرار الدخـول في النقاش بدلاً من ذلـك. فأعادوا الموضوع إلى الأسلحة المفقـودة، أو سخروا من إخلاص الإدارة، أو تمتمـوا حول أخطـار العيش في المثاليات، أو لم يقولـوا شيئاً. وقام عدد قليل من الديمقراطيين، مثل بايدن، والسفير ريتشارد هولبرووك، ورئيس تحرير مجلة The New Republic/ الجمهوريـة الجديدة، بقبول الفكـرة دون أن يلينوا في نقدهم لتصرفات الإدارة في العراق. كان هذا توازناً عقلياً صعباً، لكنه كان مهماً أيضاً؛ لأن ما كان العراقيون والديمقراطيـة بحاجـة إليـه في العراق أكثر مـن أي شيء آخر في هذه البـلاد هو معارضة مدروسـة تستطيـع إلزام إدارة بوش بوعودهـا، ليس في لعبة المطـاردة، ولكن في جهد فعلي لإنجـاح العـراق. ودون مثل هذه المعارضة، يكـون الآباء المهملون المتهـورون لسياسة الإدارة أحراراً في أن يميتوا مواليدهم جوعاً أو يطعموهم؛ حتى يموتوا تخمةً. ولأن هذه المعارضة لم تتحقق، فقد استمـروا في القيام بذلك.

كانت الإدارة موهوبة في الاستقطاب، لدرجة أن الجهود انقلبت للداخل في النهاية. فعلى الرغـم مـن أن القفل الشعبـي ظل مغلقاً بإحكام سنـة كاملة بعد الغزو، بـدأت المرارة التي أنشأتهـا المعارك الفكرية في الداخل في إضعاف الجهـد في العراق منذ البداية تقريباً. وقد قـال كولن بـاول، الذي كان يخسر في كل معركة سياسية كبـيرة تقريباً، في اجتماع صباحي للموظفـين: «لدينا أولوية واحدة. وتلك الأولوية هـي العراق. ما يطلبه جيري بريمر يحصل

عليه، ويحصل عليه اليوم. أي أسئلة؟» ومع ذلك طوال حياة سلطة الائتلاف المؤقتة لم ترسل وزارة الخارجية أفضل من لديها إلى العراق، حتى بعد أن تضاءل تأثير البنتاغون وبدأ بريمر باستخدام قنواته الخلفية إلى باول أكثر فأكثر. وقال مسؤول في الوزارة عن مكتب شؤون الشرق الأدنى، العدو الرئيس للمحافظين الجدد: «لم نبذل ما بوسعنا للمساعدة أو للمحافظة على ثبات الأمور. فقد شاهدت مكتب شؤون الشرق الأدنى على سبيل المثال، وهم يقولون: «حسناً، أنتم لا تريدوننا، تباً لكم». ومنذ ذلك الحين كانوا يقولون: «لنرَ ما العوائق التي يمكن أن نضعها في طريقهم، ولنرَ كم يمكننا أن نقدم هذه السلعة أو الشخص أو مقدار الخبرة. لنرَ كم نستطيع أن نسيء لسمعتهم».

كان من السهل القول: إن البيت الأبيض، بإستراتيجيته للإبادة السياسية، لم يكن ينال ربع ما يستحق من معارضيه، وأقلهم الديمقراطيون. لكن المواجهة أخرجت القدرات المدمرة لكل حزب، وكان العراق أسوأها. كما أن التنازل ترك الحزب الديمقراطي في موقف سيئ، أخلاقياً وسياسياً. كان حظ الحزب في أثناء عام الانتخابات يعتمد تحول العراق إلى كارثة. وحين أشار أحد الصحافيين إلى المرشح المعارض للحرب هاوارد دين الذي أصبح فيما بعد أول المسارعين إلى الترشيح، قال دين: «أنا لا أراهن على ذلك، كما أنني آمل ألا ينجح، لكن ليس هناك ما يشير إلى أن علي أن أتوقع شيئاً آخر». كان التقويم المطلع الذي استنتج أن وجود الأمريكيين قد يجعل الأوضاع أسوأ من دون وجود أي فرصة للتحول، يستحق الاستماع. ولكن الديمقراطيين عرضوا شيئاً آخر: كان ذلك سلبية منفصلة وراضية. لقد أثبت عام الانتخابات أنه العام الذي تحول فيه موضوع العراق إلى كارثة، وإذا لم يستفد الديمقراطيون من هذا الوضع، فإن هذا يعود جزئياً إلى أنه لم يكن لديهم ما يقدمونه بصفة بديل، وقد اختار الشعب ألا ينتخب حزباً يقف مكتوف الأيدي حيال أهم قضية في السياسة الخارجية. في النهاية انتخب كريس فروشيسر كيري، بسبب ولائه للحزب أكثر من أي شيء آخر، لكن بين محاولات بوش في الخطاب الذي يشبه خطابات لينكولن، وبين خطط كيري غير المقنعة التي تتناول عدة نقاط، ذهبت قلة ضئيلة من الناخبين الأمريكيين بأمل. ومع ذلك كانت شعبية الحرب تتناقص أكثر فأكثر.

كان التهكم من كلا الطرفين مصراً على الوصول إلى القوات وتكوين وعيهم السياسي الذي كان يتشكل سلفاً مما سمعوا ورأوا وفعلوا في العراق، خاصة بين المتطوعين من الرجال والنساء، فأصبح من الأصعب فهم المهمة وتسويغها. حين كنت في المحمودية بحثت عن أربعة من رفاق كيرت فروشيسر في الكتيبة، منهم مات بلاملي الذي كان بجانبه في عربة الهامفي ليلة موته. جلسنا معاً في مقطورة خانقة في القاعدة، كانوا جميعاً من الجنود، وكانوا جميعاً إلا واحداً في أوائل العشرينيات من العمر، وقد أبدوا جميعاً مودة رقيقة للشاب الذي سموه فرو.

قال ماركوس موري، وهو شاب أشقر عذب الكلام من إنديانا: «لقد أيقظتني تلك الحادثة، فهؤلاء الناس يحاولون قتلنا».

قال بلاملي: «هذا مدهش، فنحن هنا نحاول المساعدة».

أما لاترال برايهام، وهو جندي أسود من تكساس، فقد نظر إلى موت كيرت على أنه إخفاق للقيادة. «أنا منزعج، لأننا نتجول هنا بمعدات غير مرتبة. إذا أرسلت رجالاً للحرب، فعليك أن تجهزهم وتحضرهم، بحيث يستطيعون القتال. وليكن لديك رؤية لعواقب الحرب، وليكن لديك خطة حول كيفية إنهائها، لا أن تقفز إليها فقط. وتضع العبء كله علينا نحن الأمريكيين».

قال باتريك زيدمولر، وهو شاب ضخم هادئ من كاليفورنية كان أكبر من الآخرين ببضع سنوات: «التعامل مع متفجرات محلية الصنع، هذا ما نتعامل معه. نحن لا نتعامل مع أسلحة دمار شامل، نحن نحمي أنفسنا من المتمردين».

قال برايهام: «لقد وضعنا أنفسنا في شيء ما، أتمنى لو كنت أستطيع أن أملك إجابات فعلية عن سبب وجودنا هنا. لكنني لا أظن أنني سأحصل عليها أبداً. على الأقل ليس في وقت قريب».

كان لبلاملي، صديق كيرت المقرب، أسلوب خجول ورنة جنوبية عذبة. كان أقل استعداداً من برايهام للإفصاح عن الأمر كله: «إذا كان أحد هنا يكرهنا، فستكون هناك متفجرات محلية الصنع كل خمس بوصات. -هز رأسه- حرب العصابات المدنية هذه، انضممت للجيش؛ لذا فأنا منافق، لكنني كنت أحب الانعزالية التي كانت لدينا في وقت ما».

لكن حين قارنا بين وضعه ووضع المحاربين في فييتنام، قال: «كانوا أسوأ حالاً بكثير. كانت معنوياتهم أسوأ حتى من معنوياتنا. لكن معنوياتنا تأتي في الدرجة الثانية من حيث السوء بعد معنويات فييتنام».

قال برايهام: «لا أرى أننا نغير مئات السنين من الدين، ولا أرى أننا نجلب الديمقراطية إلى المنطقة. لا أرى ذلك. قد نبقى هنا عشر سنوات (حسب عدد الإصابات)، لكن أكياس الجثث تعود إلى الوطن».

قال ويدمولر: «نحن فعلاً نقلل من قيمتنا، لا أعتقد أنهم توقعوا أياً من هذا. كان العراقيون يفكرون أننا سنأتي هنا، فنشيد البيوت ونجمع النفايات، وبعد سنة ظلت النفايات في كل مكان، ولم يتغير شيء».

قال موري: «أعتقد أن ما تحتاجه هذه البلاد، هو حرب أهلية كبيرة. هناك ديانات كثيرة، نحن بحاجة أن نغادر ونتركهم؛ ليحلوا مشكلاتهم بأنفسهم».

قال بلاملي: «أظن أننا قمنا بالأمر أسرع من اللازم».

قال برايهام: «أنا أحب ديمقراطيتنا، لكننا لا نستطيع أن نفرضها».

فقال له بلاملي: «إذا توقفنا فسأكره ذلك، لأنه سيكون أنانياً جدًا لبلادنا».

قال برايهام: «لا أظن أننا سنبقى هنا لوقت كافٍ؛ فالتمرد سيصبح أكثر سوءاً. ولا نستطيع إيقافه. وسيكون هناك المزيد منه باستمرار».

سألتهم عن معنى موت كيرت. فقال بلاملي الذي لم يستطع أن يجلس مكان كيرت؛ لأن كيرت سبقه إلى عربة الهامفي، إن هناك سبباً لبقائه على قيد الحياة بدلاً من كيرت، لكنه لا يعرفه.

أما ويدمولر، الشاب الأكبر سناً، الذي كان في عربة الهامفي الثانية، فقال: «كلما تأملت ما حدث أكثر -ليس هو فقط، بل كثير من الناس- هل كان الأمر يستحق ذلك؟ هل ستفعل شيئاً مختلفاً؟ بعض المهام يمكن أن تنتظر حتى صباح اليوم الثاني».

تذكـر برايهـام حين وصل كيرت، ولم تكن لديه اللياقة البدنيـة، وأنه قطع مسافة الميلين قبله بدقيقتين. لكن كيرت عمل بجد كأي شخص آخر ليصبح جندياً.

قال بلاملي: «لم أره في مزاج سيئ قط».

قال برايهام: «أنا أفكر في فرو كل يوم، على الأقل مرة كل يوم».

كان بلاملـي يبتسم، وهو يتذكر صديقه. كان هو المتحـدث يوم الاحتفال بعيد المحاربين القدمـاء الـذي لم يستطـع أن يمنع نفسه مـن البكاء، وفي الأيـام القليلـة الأولى كان يشعر بإحبـاط رهيـب. «ثم فكرت: كيف يريد فرو أن أكون لـو كان يستطيع رؤيتي؟ وفي كل مرة لا أريـد فيها فعل شـيء، أفكر أن هذا غبي، هل سيفكر بهذا الشكل؟ لا. لذا فقد أعطاني دفعاً كبيراً».

هدؤوا جميعاً، ثم سألوا عن حال عائلة كيرت.

فيمـا يخصـص كريس فروشيسـر، كان العراق سؤالاً بـلا إجابة حول ابنـه وبلده. لم يكن بحاجـة ليثبـت أنه على حق، بل كان بحاجـة لمعرفة ما هو الصواب الـذي عرفه بأنه تكريم لكـيرت وباقي الجنود. فقد أصبحت الحرب التي أخـذت ابنه الصلة الأساسية بابنه، وكان يريد أن يشعر بصلة تربطه بالجنود الذين خدم كيرت معهم، وبالبلد الذي مات فيه أيضاً. كان أكـثر مـا يُغضـب فروشيسر هـو أن يحثه أحد علـى مواصلة حياتـه. كان يبحث بهوس وشغـف في القصائد ومقاطع الأغاني والمجلات (لم يقـرأ فقط مجلة The New Republic بـل أيضـاً In These Time اليساريـة وAmerican Enterprise اليمينيـة)، ووثائق الجيش، والبريـد الإلكتروني، والموقـع الإلكتروني للفرقـة الأولى المسلحة، وكتـب التاريخ الأمريكي، والمجلدات التي تتناول نظرية الحرب العادلة، ومتعلقات كيرت، ومذكراته. سأل فروشيسـر: «ما الـذي كان ابنـي متورطاً فيه؟ هل كان صواباً؟»، أنا أبحـث عن رواية لذلك تستقر بشكل جيد في عقلي وقلبي. أنا فخور بخدمة كيرت. لكن الأمر برمته هو هل أسيء استخدام هؤلاء الشباب؟ ولأجل ماذا؟» لم يكن يجعل الأمر سهلاً على نفسه أبداً.

كانت مراسلاتي لفروشيسر قليلة وكان يرحب بها. لم يكن يكتب بوصفه أباً فقط، وإنما بصفتـه مواطنـاً أيضاً، وكأنه كان قطعة مـن قماش قديم لم يعد يوجد منـه. لكن المراسلة

بالبريد الإلكتروني لم تحضرني للحزن الذي كان بانتظاري في دي موا حين خرجت لرؤيته في عطلة يوم التأبين عام 2004. لم تمضِ دقائق بعد أن أقلني من المطار، حتى كان فروشيسر يبكي، كما بكى حين غادرت شقته بعد يومين، وأيضاً بكى فيما بينهما. كانت عيناه الزرقاوان الضيقتان محاطتين دوماً باللون الأحمر تحت النظارات، وكان على بشرته البيضاء خطوط باهتة في خديه. كان صوته ثخيناً وتظهر فيه العواطف وجذور شيكاغو؛ يمكن أن يقطع جملته بضحكة متوترة تنفجر بالبكاء، ثم يضبطها من جديد لتنتهي.

أخذني بضعة أميال شرق دي موا إلى توسع ألتونا الجديد، حيث كان هناك وليمة في الطريق إلى بيت جيران ابنته (كان ذلك مكاناً يستمرون فيه بإحضار الطعام وإخراج نفاياته شهوراً بعد الجنازة). ابتسمت إيرين حين رأت حالة أبيها: «ليس من الآن أبي». وبعد العشاء ذهبنا إلى بيت إيرين وزوجها مايك وجلسنا حول طاولة السفرة، حيث انتشرت صور كيرت وهو في عمر أصغر، وصورة تخرجه في فورت نوكس وهو يقف باللباس العسكري أمام عربة برادلي، وبرامجه القتالية، واللافتة ذات الإطار الأحمر المكتوب عليها: «قتل في أثناء تأدية الواجب»، والقلب الوردي والنجمة البرونزية، وعلم جنازته المثلث في إطار خشبي.

كانت إيرين، وهي امرأة في أوائل الثلاثينيات ولها نظرة مباشرة بعينيها الزرقاوين، تجد صعوبة في تفسير الأمر لطفليها الصغيرين. وكان ابنها كولن الذي كان في الخامسة من عمره، يسأل باستمرار: «لماذا لم يطلق عليهم النار؟ لماذا هم هناك؟» أما ابنتها الصغرى مادلين فلم تكن تذكر كيرت. كانت إيرين تحاول أن تتخيل العراق بصعوبة، وحياة الأمهات العراقيات، والأخطار التي يعشن فيها. قالت إيرين: «أجد صعوبة في أن أتخيل حياة أي شخص غيري. هل هذا أناني؟، أحياناً أخاف أن يستمر هذا حتى نفجر العالم. وأتمنى لو أن لدينا خطة أفضل». حين رأت صور سجن «أبو غريب» في البداية، كما قالت: «فكرت: لقد فجروا أخي، لهم قوة أكثر. ثم خطرت لي أفكار أكثر تعقلاً: نحن نحاول أن نكسبهم، وهذا الإذلال لا يخدم قضيتنا». كانت مؤيدة للحرب، لكن في يوم سيئ من نيسان قتل فيه اثنا عشر أمريكياً، فكرت: «علينا أن نخرج. لا أريد أن تمر عائلات أخرى بما مررنا به. لكن ماذا حققتم؟ لذا سنكون قد خسرنا كيرت لأجل لا شيء».

فيما يخص أباها، كان التحدي الأكبر هو الاستمرار: «هذا الأمر في يوم واحد يفيدني.

أنا أشعر بورطة حين أبدأ التفكير: كيف سأمضي هذه الأيام والأسابيع والفصول؟».

قالت إيرين: «في معظم الأيام أتظاهر بأن ذلك لم يحدث».

«وأنا أيضاً. أفكر أحياناً أن هذا لم يحدث دقيقة واحدة فقط. ثم أعرف أنه قد حدث».

حان وقت المنبه في ساعة كيرت.

قال فروشيسر: «يجب ألا يكون يوم الغد مؤلماً، أعتقد أنهم سيقرؤون الأسماء فقط».

عدت مع فروشيسر إلى دي موا. شعرت أن شقته أصغر مما كانت، بسبب عدم وجود ضوء طبيعي فيها، ولأنها أصبحت مستودعاً مبعثراً لكل أغراض كيرت، وملابسه ومعداته الرياضية، وأقراصه الليزرية المكدسة بجانب تسجيلات والده القديمة وكتبه، وميداليات وأعلام وأوسمة تأبينه. كان فروشيسر ينام على الأريكة في غرفة الجلوس، وكأنه يبقى ساهراً، منذ اليوم الذي غادر فيه للتدريب الأساسي. أما أنا فقد نمت في غرفة كيرت. ظللت ساهراً وقتاً طويلاً قبل أن أغرق في النوم.

كان القبر رقعة من التربة الداكنة والعشب الأخضر، وكان محاطاً بقبور المحاربين في الحروب السابقة التي كان على كل منها علم تأبين يهتز في النسيم في صباح ربيعي لطيف. قدم فروشيسر التحية، وكان يرتدي ملابس زرقاء. قال فروشيسر: «مرحباً، يا رفيق»، وهو ينحني ليمرر يده على الشاهدة التي حفر عليها صليب والكلمات الآتية:

كيرت راسل فروشيسر

ب. ف 2 الجيش الأمريكي

العراق

10 تموز 1981 - 8 تشرين الثاني 2003

القلب الوردي

«كان من الصعب إبقاء الثلج بعيداً عنه، لأنه تجمع طوال الشتاء. حين تكون الأوساخ طرية، تستطيع أن تضغط عليها، وتترك آثار يدك. كان هذا شيئاً جيداً». كان يتحدث

مـع القـبـر الآن. «محاولة نسيان الأمر أقـل إيلاماً، لكن عليك أن تبقـى متذكراً. قال كيرت ذلـك عشوائياً: عش حياتك أيهـا الرجل العجوز، وأنا لا أريـد أن أنسى». كان يعدل الشمعة التـي لا تنطفـئ تحت الزجـاج الأزرق: «نحن نعـرف أن النـاس يعيشـون في قلوبنا، لكن هل يعيشـون بطريقة أخـرى؟ نحن لا نعرف إجابة هذا السؤال». قـام على قدميه ببطء، وعدنا إلى السيارة: «ما معنى كل هذا؟ إنه لا يعني شيئاً. المعنى هو كيف نرد».

حضر الحفل في الحديقة حشد صغير، ضم عدداً من الرجال المسنين بقبعاتهم العسكرية. لاحظـت المرأة المشاركة في لجنة تنظيم الحفل فروشيسـر، ورافقته إلى صف من الكراسي حيث تبادل التحيات بصعوبة مع زوجه السابقة. كانت جيني ترتدي سترة عليها صورة العلم الأمريكي، وعبارة: «هذه الألوان لن تختفي»، لكن وجهها كان متغضناً من الحزن. قدم أحد السياسيـين خطابـاً قصيراً، ثم تلوتُ أسماء أربعة عشر شخصــاً من أياوا كانوا قد قتلوا في العراق. انتظر فروشيسر دوره ليضع وردة تحت حربة بنـدقية إم 16 مغروسـة في الأرض وفي أعلاها خوذة، كما تُجرى المراسم في بغداد.

قطعنا الولاية لحضور حفل تخرج ابنة شقيق زوجه السابقة في مدينة صغيرة قرب حدود أيـاوا (كان يريد المحافظة على علاقـات أسرية قوية قدر المستطاع، ولا سيما الآن). قطعنا الهضــاب الملتفة المغطـاة بالعشب وصوامع الحبـوب ومصانع البذور وحقـول الذرة والقش الشاحـب، مع ظلال الغيوم البيضاء الناعمة التي كانـت تتسابق في السماء الزرقاء، بدا أن المنظر الحالم وحرية الطريق قد أطلقت أفكار فروشيسر قليلاً من أعباء الصباح. كان يقرأ كتاباً اسمه باريس 1919، يتحدث عن آثار الحرب العالمية الأولى، حين رسم ت. إي. لورنس وغيرتـرود بيل وغيرهمـا خريطة العراق في قصـر فيرساي. اختلف السـير آرنولد ويلسون المفوض السامي في العراق مع مساعدته بيل حول عدد من الأمور، لكنه احتفظ بها في بغداد وقـدر معرفتهـا، قال فروشيسر: «لذا حين أسمع أن توم ووريك هــذا قد استبعد من العملية تمامــاً ماذا؟ لمـاذا؟ نحن بحاجـة إلى كل المعلومات التـي نستطيع الحصـول عليها. فحين تتحدث عن إرسال كيرت فروشيسر إلى العراق، وتخترق قطعة معدنية رأسه لتدخل دماغه، ويكون والداه هنا في ديموا، أياوا، فمن الأفضل أن تأتي بأفضل معلومات حصلت عليها، حباً بالله». بدأ يفكر في الأفكار الكبيرة التي لم تكن تخطر بباله في أثناء حفل التأبين. «أتساءل:

كيف يفكر بوش بينه وبين نفسه حيال كونه ضد بناء الأمة، وقد غرق فيه الآن حتى خصره. ما هذا؟ هل هو تناقض أم سخرية؟» لما كانت أمريكة كانت تمد نفسها بعمق داخل دول أخرى، فقد أردنا أن نكون فطنين وماهرين بقدر ما نحن أقوياء، مع كادر كامل من أمثال غيرترود بيل المثقفين في العلوم الإنسانية، القادرين على العمل عبر البحار. «كنت أفكر في تلك الأغنية في ذلك اليوم 'Ain't Gonna Study War No More' (لن أدرس الحرب بعد الآن). ربما علينا أن ندرسها. وإلا فسنفسد الأمر؛ لأن أبناءنا وأحفادنا سيقومون بذلك». وقد سمعنا السياسة الخارجية الجديدة لبوش التي وصفت بأنها على طريقة ويلسون، وهو تعبير ملهم. «هناك عبارة: أمريكة العظمى والعادلة. اعتاد ريغان الحديث عن (المدينة التي على الهضبة). في المرة الأولى التي سمعت فيها كوندوليزا رايس تتحدث عن الديمقراطية في العراق شعرت بقشعريرة تسري في ظهري. لكنك تسأل بعد ذلك: كيف ستحققونها؟ وهل هي ضرورية؟» قاد فروشيسر بصمت برهة، وحين عاد للكلام كان صوته أكثر هدوءاً: «هنا يسقط في يدي فيما يتعلق بكيرت».

فسألته عن معنى ذلك.

«حياة كيرت، هل كان الأمر يستحق ذلك؟ برأيي لا. فقد كان أهم من ذلك. ولذلك أتراجع».

في تلك الليلة حين عدنا إلى الشقة في دي موا، كنا نشاهد قناة CNN حيث ثلاثة عشر قتيلاً في العراق في عطلة نهاية الأسبوع حين رن الهاتف. كان المتصل هو مات فان بورن، سائق عربة الهامفي التي قتل فيها كيرت، وكان يتصل من ألمانية، حيث لايزال في إجازة ليتعافى من جروحه. أخفض فروشيسر صوت التلفاز، وجلس على كرسيه الهزاز. كان يشعر بالصداع بسبب توتر اليوم، قال فروشيسر: «لست متأكداً مما يمكن أن أسألك إياه، دعني أعرف إن تجاوزت الحدود». وعلى الطرف الآخر، كان فان بيرن يصف تلك الليلة، قال فروشيسر: «لقد تلقى ضربة قوية على رأسه، ولم يكن لديه فرصة، أنا أفهم ذلك، لقد أصابته الضربة في المكان الخطأ. لم يكن قادراً على الكلام بعد تلك الضربة، أليس كذلك؟» كان فروشيسر يسمع وانفجر بالنحيب: «لكنه كان يحاول؟ نعم، هذا يشبهه. لقد كان شخصاً صالحاً. نحن فخورون به. لم يكن لديهم ما هو أفضل ليقدموه؛ لذا فقد رحلوا؟

أنا أؤمن بذلك، نعم، أنا أؤمن بذلك».

في الصباح كنت سأتوقف عن التطفل، وأعود إلى دياري، وأترك كريس فروشيسر يمر بيوم آخر من الذكريات والأسئلة مستحيلة الإجابة. لكنني الآن تحديداً، كنت أشاهد التلفاز الصامت: هجمات إرهابية في السعودية، ومعارك مسلحة بالقرب من النجف، وعمليات للقوات الخاصة في أفغانستان، واحتفالات بيوم التأبين للمحاربين القدماء في أمريكة. كانت تلك العناوين، دون صوت، تبدو كمشاهد من حرب تراجعت إلى التاريخ.

أغلق فروشيسر الهاتف. «فان بورن قال: إنه حاول الكلام، لكنه لم يستطع. لقد قاوم كثيراً ليبقى على قيد الحياة». لم يسبق لفروشيسر أن سمع هذا من قبل، وبدا غير متأكد إن كان يستطيع تصديقه أم لا، وإن كان يستطيع الترحيب به أم لا. اتصل بإيرين ليخبرها، لكنها كانت قد اكتفت من المشاعر بيوم واحد، وأنهت المكالمة بسرعة. عاد فروشيسر ليجلس على الكرسي الهزاز، وقال: «لا أستطيع التفكير في هذا كثيراً، لكن لو استطاع كيرت أن ينجح في تلك الليلة لكان اليوم على قيد الحياة».